

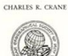
AMERICAN GEOGRAPHICAL SOCIETY
ORIENTAL EXPLORATIONS AND STUDIES No. 6.
Edited by J. K. Wright

THE MANNERS AND CUSTOMS OF THE RWALA BEDOUINS

BY

ALOIS MUSIL
Professor of Oriental Studies
Charles University, Prague

Published under the Patronage of the
CZECH ACADEMY OF SCIENCES AND ARTS
and of
CHARLES R. CRANE



NEW YORK
1928

الرّوَلَه وعاداتُهم

للمستشرق التشيكوسلوفاكي ألويس موزل (١٨٦٨ ـ ١٩٤٤م)
ترجمة الدكتور محمد بن سليمان السُّديس

الأَجْرامُ السّماويّة والطّقْس(*)

يتصور الرولة أن القمر ينظِّمُ حياتهم، فهو يكثف أبخرة الماء، ويجذب السحب الممطرة، ويستقطر المطل النافع على المرعى، ويتيح للنباتات ـ ولا سيما المعمرة منها التي هي جليلة الأهمية للإبل ـ النمو والحياة المديدة.

وهو يجود على البدوى المتنقل بأمان نسبيٍّ وهجوع منعش. ويتصور البدو، من ناحية أخرى، أن الشمس تتحرق لتدمرهم، فهي تسرع في إيباس كل رطب، لا من مكونات الأرض وحسب، بل من النبات والحيوان والإنسان.

إنها لتقضي على الحياة بمظاهرها كافةً، وتمكن الأعداء من الغزو، بأن تتيح لهم الرؤية الجليّة. وهي تنتقم من الناس والأنعام الهالكة بإحالة الأجساد الميتة سمًّا زعافاً.

والشمس أنثى قوية نحيلة، ممتلئة غيظاً. ولأنها عقيم فهي توجس في قلبها غيرة من الحياة بمختلف ألوانها، وتقضي عليها في مهدها.

وكانت الشمس (الأنثى) مُذ عرفها البدو وما فتئت مُسِنَّةً بقدر ما كانت غيوراً وشحيحة. أكانت في أي وقت مضى أصغر سنّاً مما هي عليه الآن؟ وهل أنجبت ذرية؟ هذا ما لا سبيل لمعرفته. ولكن الرولة يرون أنّ لو عادت الشمسُ فَتِيَّةً وحملت الأطفال لأضحت في الحال أرقّ وأكثر حناناً.

أما القمر ففتًى مبتهج، مفعم بالنشاط والحيوية، والشمس زوجُه، لكنه لا يشاطرها عش الزوجية فهو يبقى معها في آخر أيامه وهو قمر، وأول أيامه وهو هلال، من أجل المعاشرة الزوجية، لكنه غير قادر على إشباع عواطفها. ويضحى القمر نحيلاً جدًّا لخوفه منها ومن إضاعة قوّته بلا طائل.

لقد امتنع في باديء الأمر عن تلبية رغبات زوجه العجوز التي ـ برغم ذلك ـ لا يمكن إشباعها، لكنَّ هذا أثار حفيظتها فحدث بينهما صراع اقتلع فيه كل منهما عين ندّه. ومُذْ ذاك فإن في ذلك الموضع من كل منهما بقعةً قاتمةً أو نَدْباً، ويحِنُّ كل منهما إلى عينه المفقودة: يَحِنُّ إليها القمرُ لِيُحْسِن إلى الرولة، وتحنُّ الشمس إليها لتلحق بهم مزيداً من الضرر. يقول القمر أحياناً: «واللهْ لولاكْ فَضَخْتِ عيني لا أخَلّي الصقَّار يهدْ بْقَمْرايَهْ»، أي: والله لولا أنّكِ اقتلعتِ عَيْنِي لتركت الصيادَ يطلق صقرَهُ على الصيد في القمراء. فتجيبه: «والله لولاكْ فَضَخْتْ عيني لا أخَلّي حِقّةَ البِلْ تِشْوَى بْرَمْضَايَهْ» أي: والله لولا أنكَ اقتلعتَ عيني لجعلت الحِقَّة من الإبل (أي الناقة التي بلغت السنتين) تُشوى في الرمضاء.

وللقمر والشمس عدو واحد، إنها غولة شبيهة بالسمكة تدعى «الحوتة»[1]. لقد اضطهدتهما منذ أمد موغل في القدم، لكنها نادراً ما أفلحت في خداعهم. وما برحت متى ما فعلت ذلك تفتح فكيها، وتحاول ابتلاعهما، فيروغان أحياناً، فلا تحظى إلا بفلذة صغيرة منهما. لكنها في أحايين أخرى تزدردهما عظماً ولحماً، لكن الشمس من الحرارة والهزال بحيث لا تستطيع حتى الحوتة هضمها فتقيئُها بسرعة دون أن يمسها مكروه. لذا فالرولة غاضبون لأنه حتى الحوتة لا تستطيع تخليصهم من الشمس القاتلة. أما القمر فإنهم جدُّ بِهِ حفيُّون، وإذا ما لاحظوا أن الحوتة قد عضته، إبان فُتُوَّته، فإن معظم المخيمات تضطرب، وينبعث الرجالُ والنسوة خارجين من البيوت مسرعين لنجدته.

النساء يضربن قدورهن النحاسية، والرجال يلوِّحون برماحهم، ويشهرون سيوفهم في الهواء، ويطلقون العبارات النارية، ويصيحون بصوت واحد: «يا حوتَهْ أطلقي القَمَـااااار» فإذا لم يُجْدِ ذلك نفعاً، قفز الرجال على صهوات جيادهم، والنساء على الجمال، وانطلقوا جميعاً نحو المكان الذي تهدد فيه الغولة القمر. وهم حتى الآن ينجحون دوماً في إنقاذه، لكنهم ما فتئوا يخشون انتصار الحوتة. ولهذا السبب فإن لكل حيٍّ رقيباً ليليًّا لا ينحصر واجبه في حراسة الممتلكات وحسب، بل وحراسة القمر وَليِّ نعمة الرولة أيضاً.

ويحس البدو بتوتر شديد أيضاً في الليلة الأولى التي يهل فيها الهلال (لَيلَة السَّرا) لأن القمر لا يُرى في تلك الليلة في شرق أو غرب. ويتطلعون في اليوم التالي تجاه غربي السماء بلهفة أملاً في اكتشاف ولو جزء صغير، في الأقل، من دائرة وليِّ نعمتهم القمر الهزيل (لاقْمِ من قَرصَتِه). فإذا رأوا الهلال أراه بعضهم بعضاً، ورفعوا أيديهم إليه صائحين: «يا هلال، يا سِيِّد، يا سعيد، يا عزّ الهلال، يا اللي فَكَيْتنا بْهَلِّي زَلّ تَفِكِّنا بْهَلِّي هَلّ»، ومعنى الجملة الأخيرة: يا من سلمتنا في هذا (الشهر) الذي زَلَّ أي (مضى)، ندعوك أن تسلِّمنا في هذا (الشهر) الذي هَلَّ.

ولا يعرف الرولة معرفة مؤكدة أبداً كم ليلة مضت على الهلال، وإذا تباحثوا في ذلك تشاجروا، ثم اضطروا إلى التسليم بما يقوله أكبرهم سنًّا وأكثرهم تجربة. لكن الثقة في كبار السّن تضعف جيلاً بعد جيل. فالشباب أذكياء، ولا يعيرون نصائح آبائهم وآراءهم آذاناً صاغية، ومن هنا جاءت شكاية أب مُسِنٍّ لابنه بقوله: «يا وِلْدِي بِطْلَعْ جيلٍ واني، يقول لِلْهِلال ابنْ ثاني»، أي: سيأتي جيل عاصٍ يقول: إن الهلال، وهو في ليلته الأولى، في ليلته الثانية!!

ويضيف جار له: «بِطْلَعْ جيلْ مِدْفَع، لْيا عزَّمْتِه ما يَرْوَى وما يِشْبَع، ولْيا نَخَيته ما بِفْزِع» أي: سيأتي جيل عنيد، إن دعوته إلى مأدبة فإنه لا يرتوي من شراب، ولا يشبع من طعام، وإن استنجدت به لم يُنْجِدك!

ويكون البدويُّ أسْعَدَ ما يكون في الفترة من الليلة الثامنة حتى الثامنة عشرة، لأن القمر، في هذه الليالي، يظل حيًّا حتى تطلع الشمس (تَطْلَع الشمْسْ والقَمَرْ حَيّ).

وتُدعى هذه الليالي «البيض» (لَيَالَ البيض)، فلا يمكن فيها رؤية البدوي من بعيد، ولا مهاجمته بغتةً من قريب، لأنه يرى أبعد من مرمى البندقية. وابتداء من الليلة الثامنة يستطيع النوم قرير العين، ومن الليلة العاشرة فما بعد لا يكون مضطراً لجمع إبله البارِكة منتشرة حول بيته هنا وهناك **(ليلة ثِمَانْ نِم بامان، وليلة عَشَرْ لا تْرِدّ النَّشَر)**. فبالإمكان، في هذه الليالي، ترك نار المسافر الوحيد متقدة، وفي الغازات الحربية لا حاجة لقنديل لينير الطريق، فلا غرو، والحال هذه، أن يتمنى الشاب الفتيّ قائلاً: «أبْغِي إنَّ الليل أقمر. والرَّوضُ أخضر، وأنا حيّ لا أزغر ولا أكبر» أي: أريد أن يظل الليل مُقمراً كل ليلة، وأن يظل الروض دائم الاخضرار، وأظل أنا حيًّا ودون أن أكْبُرَ أو أصْغَرَ.

ولكن يبدأ الشر في المجيء بعد الليلة الثامنة عشْرة، فاللصوص يجوسون خلال الحي، ويخترق الأعداء المكان، وتُرى النار الضعيفة من بُعدٍ شاسع. ويُحْدِق الخطر بالقاصي والداني، لهذا فإن التحذير يُسمع المرة تِلْو المرة: «ليلةْ عَشْرِيْن احفظ مالك يا مسكين».

إن ظلامَ الليلِ البهيم لَيُفْعِمُ أفئدةَ الأرقينَ بالرهبةِ فيجأرون بالهتاف: «**الله يكفينا شَرّ الظّلّما والظالمين**»[٢].

وفي الشتاء يعبر القمر كبدَ السماء، بينما يظل في طرفها صيفاً «مع بَطين السَّما»، وتُلقي الشمس وهجها فوق الرءوس تماماً.

ويقسّم البدو الزمن إلى فترتين: إحداهما عندما يحكم القمر، والأخرى عندما تحكم الشمس، الأولى تدعى «الليل» وتدعى الثانية «النهار»، ويؤلفان معاً يومنا ذا الساعات الأربع والعشرين (يَوم)؛ والبدو، على أية حال، لا يستعملون هذا الاسم، فهم يذكرون الليل أو الليالي فقط، أما النهار، حكم الشمس، فيُعدّ تابعاً للّيل الذي يبدأ بغروب الشمس، وينتهي بطلوعها، ويسمى وقت غروب الشمس «المُغرِب» وأول الليل «العَشَا»، وما بين غروب الشمس وانتشار الظلام «العَتيم»، ثم يجيء «العَتيم الأخير»، وأخيراً منتصف الليل «نُصّ الليل»، وما بين منتصف الليل وشروق الشمس هو «تالي اللّيل»، ثم تأتي «شقّة العمود»، أو حين تبدأ نجمة الصباح في الارتفاع فوق الأفق المظلم وأخيراً الفجر «طلعة الحَار» ـ بفتح الحاء ـ، ويدعى وقت شروق الشمس «الصُّبْح»، والوقت الذي ترتفع فيه الشمس وتجفف الندى، أو تكون في منتصف الطريق بين الشروق والظهر هو «الضّحى»؛ ثم الظهر، وتليه «القايلة» أو «صكة

«العُمَيّ»: وقت القيلولة[٣]. وماكان نحو منتصف الوقت بين الظهر والغروب فهو العصر، ثم يأتي «الْعصير».

وليس تقسيم اليوم إلى ساعات معروفاً، ويستعمل الرولة كلمة «ساعة» لكن بمعنى: «على التَّوّ، أو: «حالاً»، أو: «بعد دقيقة» .. مقلاً: «أشْعل النار بْساعة». أي: مباشرة. وأيام الأسبوع لا تعد، فإن «سُبوعْ» لا تعنى سبعة أيام وحسب، بل خمسة أو، حتى، تسعة أيام، أو أكثر.

ولا يعلم الرّولة هل الشهر ثمانية وعشرون يوماً أم ثلاثون، ولا يبالون بذلك، لأنهم يعدون الليالي وحسب، وليس لديهم أسماء معينة للأشهر كلٌ على حدة، لكنَّ «حْمار» العبد الأول للأمير النوري أصر على أن الأشهر المتتالية تسمى على هذا النحو:

عاشور ـ صُفَر ـ الأربعة الأشهر التوامْ[٤] ـ الغَرّا ـ القُصَيِّر ـ رَمضان ـ شهرا الأَفْطار ـ وأخيراً: الضحيَّه.

لكن لا أحد من عامة البدو، بل ولا من شيوخ العشائر الشبان، يعرف هذه الأسماء كلها. وكل يعرف «رمضان» و«الضحية» وكل يستطيع ذكر بعض باقي الأسماء، لكن دون معرفة النسق.

ويبدأ العام بالخريف حين ينكسر كل عود (بطقّ العود)، وتلك أمارة على كونه تام النشوفة واليبس. ثم يظل البدوى يترقب متطلعاً إلى الغيوم منتظراً المطر والعام الجديد اللاحق.

● الغيـوم والمطـر ●

الهلال هو الذي يجلب المطر، فحالما ينتهي موسم المطر يمتص الهلال الماء من البحر العظيم في قطرات متناهية الصغر بحيث تستطيع القطاة جرع مائةٍ منها دفعةً واحدة. ويَصُفُّ الهلال هذه القطرات صفوفاً متماثلة، ويصوغ منها أبخرةً وسحباً خفيفة (غيم) في موضع ما بعيدٍ في الغرب ـ في (الخضرا)، أو تونس، كما يظن بعض الناس.

ثم لا يكاد سهيل يبدو في الأفق في الخريف («الهريف») مستخدمة بمعنى

«الخريف»، حين لا يكون لدى البدو ماء لهم، ولا مرعى لقطعان ماشيتهم، حتى يرسل الله المَلَك إلى الغرب الأقصى (أقصى الغرب) فيأمر المَلَكُ القطراتِ أن يلتئم بعضها مع بعض، وهكذا تؤلِّف السحبُ الداكنةُ (سِحِب)، فيجرها إلى الشَّمال حيث يصفّدها بالسلاسل. ثم يضيف إلى هذه السحب سحباً صغيرة (غيم) أكثر فتضحى السحب كثيفة (يحَجْحِج)، وأخيراً يستاقها (يشِلّها) أمامه وهو قابض على العصا (المحجان) الذي يسوق به مطيته، فوق أراضي الرولة وغيرهم من البدو، ويأمرها أن تُسقط أمطارها على الصحراء التي سَفَعَتْها الشمس بأشعتها، وإن قاومت أية سحابة هذا الأمر ضربها الملك (بمحجانه) مُحْدثاً البرق والرعد .. فتتخلى السحابة الوجلة عندئذٍ عن كل ما تحمله من مياهٍ، ثم تتبدد وتتلاشى. لكن ماكلُّ بارقةٍ تجود بمائها. وأحب الغيوم إلى البدو ما يسمى «سِحِب» و«مِزِن». و«السحابة» أو «السّحاب» هي سحابة رمادية كثيفة بصفر لونها، في الغالب، فلا تتبدد حتى تمطر (لْيا رَقَّطتْ نَقَّطتْ). و«المُزْنة»: سحابة صغيرة بيضاء أصلاً، تنضم إليها سحب كثيرة أخرى شبيهة بها (**يتَفازعن**)، فترتفع السحابة الكبيرة الناتجة عن ذلك، وتسودّ بعض أجزائها، وتلمع البروق في حواشيها، وتزمجر بالرعود، ثم تثمر مطراً غزيراً (**صَنَعَتْ**). يقول البدو عادة: «إنْتِ مِزْنةُ الغَرَّا اللي غشَّانا هَلّها، وَاهَلّي بك هَلْوتين هَلْوة الأرض ببلالها» أي: أنتِ أيتها المزنة الغراء التي قد أدهشنا مطرها! أرحب بك ترحيبين كترحيب الأرض ببللها.

وإذا أمطرت السماء بغزارة ابتهج البدوي وقال: «هَلّل المَطَر هَلّ! سَيَّلتْ الدِّنْيا»!

وإذا رئي المطر متساقطاً، عن بعد، قال الرجال: «استَهَلّتْ الدِّنْيا» أي: لقد صلى العالم من أجل مطر وفير وأفلح في صلاته[٥].

وتسمى زخة المطر التي تستمر قليلاً فقط «رَهَاشيّة» أو «مْرِهاش»، والمطر الوفير الذي يسقي منطقة صغيرة من الأرض «هِمْلُول» والجمع «هماليل»، وإذا كان المطر كثيراً على منطقة واسعة سُمي «ديم».

وقد يمطر السحاب أغزر مطر، لذلك قد يسمع المرء غالباً قولهم: «سحَابٌ نهاب .. يرمي على روس الحزوم اكشاش» أي: السحاب نهابٌ يلقي على قمم التلال مزيجاً من الحصى والحصباء.

والمطر الشديد الانهمار يجرف التربة الخصبة الصالحة للنباتات المختلفة من الروابي العالية ذات المتون المتموجة، فلا يبقى هناك سوى أحجار كبيرة أحجامها متنوعة لا يجد البعير بينها إلا نزراً يسيراً مبعثراً من العشب.

ويصف البدو السماء الملبدة بالغيوم تلبيداً تامًّا بأنها «مُطَرّسة». والسحبُ نصفُ الشفافة الشبيهة ببيوت العناكب المعلقة تحت السحب الكثيفة العليا هي السحب الممطرة «رُوِيَّات المطر».

والسحب عن بكرة أبيها تطيع أمر الله (سبحانه وتعالى)، وهو يرسل مَلَكه إليها، فيمسك بعصاً (محجان) بيده، ويحث السحب على المسير، ويصيح بها، ويضرب العاصيات. وضربة «المحجان» هي درب البرق المتعرج «عَقْرَبَة»، والصياح والضرب هما هزيم الرعد الذي يسمع على مسيرة يومين (تُقطع خلالها مائة كيلومتر). وإذا دنا الرعد (ليا ارعَدَتْ السحابة) فإن البدوي يصيح في توقع مستبشر للمطر: «اعْمِر يا كريم! يا زَين الوَحَى!». أي: أنبت لنا مرعى جيداً يا كريم! ما أجملَ الصوت!

ومع كل ومضة من ومضات البرق يهتف البدو: «عزَّك يا عزيز الوجه!» أي: ما أعزَّك يا عزيز الوجه!.

وإذا أصاب (لَعَج) البرق شيئاً ما حول الحي فإن البدو يخشون أن تهبط قطع من السحاب وتدفنهم، ولذلك يصيحون: «إرفَع العَرْش عن الفَرْش يا مانع قُوى» أي: ارفع السماء عن الأرض يا مانع يا قوي!

وتنفصل أحياناً قطعةٌ من السماء مؤلفةٌ من نار وحديد، وتسقط على بدوي فتقتله «فلان طاحت عليه الصاقعة».

وإذا أمطرت سحب مرتفعة جداً فإن الماء يُغرق بعض النجوم الصغيرة التي يعوم آلاف منها في الجو في الليالي الباردة. يتّقِد كل نجم منها اتقاد الجمرة، وإذا أصابها المطر انطفأت، وأخذت تُهسهس ثم تفتَّتت، وسقطت على الأرض، وهي تصرخ أثناء سقوطها طالبة النجدة. ويشق مثل هذا النجم الساقط في الصحراء أخدوداً (**مطيح النجم**) يتراوح طوله بين أربعين خطوةً وستين، ويختبئ في أقصاه.

وأي شخص يلاحظ سقوط نجم فإنه ينطلق في الحال مسرعاً بقِرْبَةٍ ملأى بالماء إلى مُختَبَئِه، ويصب عليه الماء، ويُهيل عليه الرمل والحصباء، وينتظر عاماً كاملاً، وعند انقضاء تلك المدة يزيح الرمل والحصباء، ويخرج النجمَ، ويذهب به إلى صانع سيوف حاذق فيذيبه ويطرقه، ويصنع منه سيفاً ذا حدٍّ واحد تصل قيمته مائة ليرة تركية (٤٥٠ دولاراً).

وحين يبدأ السحاب في التلاشي مع وجود البرق والرعد فإن الرولة يدعون قائلين: «**يا مَنْ يرْسِل للسَّحابْ، يرْسِلْ له ثمانِ ارْكاب، وْيَقُولْ لهْ عَطْوايجي**» أي: يا من يرسل (الملائكة) إلى السحاب! أرسل له (ملائكة) على رِكابٍ ثمان، وقل له: عطاء (الله) سيهطل.

وإذا نشر الله الرحيم السحب لكن لم يسقط من المطر سوى قطرات قليلة، فإن البدو يندبون (حظهم) قائلين: «مِنْ عُقْبه غَدّينا الذّهاب، مثل ضحضاح السراب، عُقْب الله ما حِنّاشِين» أي: من بعده (أي هذا المطر) فقدنا ما كان قد يجلب لنا الذهب، (لقد فقدناه) كضحضاح السراب، إننا لسنا شيئاً بدون الله (**أي لا نستطيع عمل أي شيء دون عون الله**).

ولو نزل المطر غزيراً لوفر للإبل مرعى طيباً، والإبل التي تحظى بمرعى طيب تباع على «عُقَيل» بالذهب[٦].

ويدلّ ظهور قوسِ قُزح (سَيْف المَطَر) نهاراً على انتهاء المطر، وحالما يختفي تهدأ السحب (لَمّا سَيْفَتْ كَيْفَتْ).

● الفصــول ومواسم الأمطــار ●

السحب في الصيف كثيرة لكنها غير ممطرة، وفي الخريف فقط يُرى قوس قزح صغيرٌ (مِدّة الشمس) إما عن يمين الشمس أو عن شمالها، وهي أمارة لا تخطئ على أن المطر آتٍ عن قريب. وفي هذا الفصل يأخذ العرافُ (صاحب السِّر) عرافُ عشيرة (النَّصِير) مبارك ابن هويمل حفنة ملح، ويقسمها أقساماً ستة صغيرة مبيِّنةً الأمطار الرئيسة، ويجعلها على

هيئة صليب (صَلَب) هكذا:

سَهَيلاوى

صيفي ثُرّوى شِتْوى

جوزاوى

ثم يضطجع بقربها، وينتظر ما سيخبره به مبعوث الله خلال الليلة المُقبلة. وفي الصباح التالي يفتش هو والآخرون الأكوام؛ والكوم الذي ذاب أكثر ملحه هو الذي سيجود بالمطر الوفير(٧).

وتبدأ سنة البدو مع أول مطر غزير بعد ظهور (سُهَيل) في أوائل أكتوبر: «طلعة السّهيل (كذا) نُشرّق» أي: لقد أرانا سُهيلٌ نفسه فلنمضِ إلى الصحراء الداخلية!. هذه هي صيحة البدو الذين يجوسون خلال البراري الداخلية بعد أن يبرحوا حدود المناطق المأهولة والمزروعة مع ما يملكون انتجاعاً للمراعي.

ومدة سهيل أربعون ليلة، وبعدها الثُريا ومدتها خمس وعشرون ليلة (ثُرّوي)، ثم تتبعها الجوزاء ومدتها كمدة الثريا.

وهكذا فإن ليالي سهيل والثريا والجوزاء تسعون ليلة ـ ثلاثة أشهر ـ وهذا الفصل من فصول العام يسمى (الصَّفِري)، وهو يوافق أكتوبر ونوفمبر وديسمبر على وجه التقريب. ثم تدخل الشِّعْرى (الشَّعرى) وتلبث أربعين ليلة. وهذا الفصل من فصول العام يسمى (الشّتا). وبعد الشعرى يدخل (السِّماك) ويظل خمسين ليلة، ولكن في منتصف أبريلنا ينتهي حكم النجوم، ثم يدخل الصيف الذي يستمر حتى بداية يونية تقريباً، ثم يخلفه الفصل الجاف (القيظ) ممتداً أربعة أشهر حتى نحو أوائل أكتوبر.

وهكذا فإن البدوي يعرف للعام فصولاً خمسة: الصّفِري: تسعون ليلة (**من أول أكتوبر إلى أول يناير**)، والشّتا: أربعون ليلة (إلى نحو من ٢٠ فبراير)، تتبعه فترة تسمى أحياناً الجزء الثاني من «الشّتا» وتنتهي في الرابع من مارس تقريباً، ثم السِّماك: خمسون ليلة (إلى منتصف أبريل)، فالصيف (**إلى أول يونيه**) ثم أشهر القيظ الأربعة.

ويجهل عامة البدو أي تقسيم للعام غير هذا التقسيم.

ويقسم البدو الأمطار إلى: الوسم، والشّتْوى، والسّماك والصيفي. ويتضمن الأول منها أمطار «السهيلاوي» و«الثّروي» و«الجوزاوي» أي أمطار سهيل والثرياء والجوزاء، أو أمطار «الصّفرى»، أو الأمطار الخريفية.

وحالما يظهر سهيل يغادر البدو مخياتهم المقامة في الأودية وفي بطون الشعاب الواسعة الجافة التي غالباً ما يتجاوز طولها المائتي كيلومتر.

وبعد سقوط أمطار وفيرة في أعالي هذه الأودية يندفع الماء اندفاعاً عنيفاً عبر القنوات، حاملاً معه المخيات، ومفرقاً الناس وماشيتهم معاً، ومن هنا قيل: «لُبا طَلَعَت السّهيل (كذا)، لا تامَن السَّيل، وتَلَمَّس التَّمْرَ بالليل»، لأن التمر يكون في ذلك الحين ناضجاً، ولا حاجة للانتقاء.

ويسمى المطر «السّهيلاوي» أيضاً «الخرْفي» أو «الهرْفي».

وإذا كانت الأرض قد تشربت به تماماً «أرْض مَوْسُومَةٌ عليها الخرْفي» فإنها تتفتق عن وريقات النباتات الحولية الصغيرة ذات الخضرة الشاحبة .. فتظهر هذه الوريقات سريعاً في كل مكان ويدعوها الرولة أعشاباً (عشِب)، بينا يسمون النباتات المعمرة نباتات خشبية (شَجَر).

وإذا كان «الوسم الثّروي» أو مطر الثّريا وفيراً أيضاً فإن النباتات تبلغ أقصى نموٍّ لها، وترعى الإبل عشباً جديداً حتى قبل حلول الشتاء.

والوسم «الثّروي» أهم الأمطار كلِّها، فهو العامل الحاسم للرعي في المستقبل. ويضمن المطر «الجوزاوي» الوافر الممتد على مناطق واسعة نمو الأعشاب والأشجار، ويطرد شبح الجوع. ويأتي أحياناً بعد انقضاء فترة المطر «الجوزاوي» مَطرٌ يدعى «التوبيع» في وقت ظهور «الدبران»، فيُتمُّ الخصب الذي جلبته أمطار «الجوزا» على أنه غير كافٍ وحده ليحل محل تلك الأمطار حُلولاً تامّاً.

ولا يضمن المطر (الشّتْوى) الذي يسمى «النّقصان» نمّوًا جيداً للأعشاب إن لم تكن قد نبتت بعد أمطار الموسم.

وثمة في السِّماك، وبخاصة في فصل الصيف، أيام كثيرة شديدة الحرارة حتى أن الأعشاب التي تكون قد نبتت بعد المطر (الشَّتْوي) تصفرّ قبل اكتمال نموها. ولكن المطر «الشَّتْوي» يملأ الخزانات كلها بالماء الصحيّ النقيّ الذي يتبخر ببطء خلال أيام الشتاء ولياليه الباردة، ويظل، نتيجة لذلك، نقياً مدة طويلة.

ولا يكون مطر «السِّماك» نافعاً ما لم تكن التربة قد ارتوت بأمطار خريفية ريًّا تامًّا، لا سيا أمطار الجوزاء، لأن أمطار «السِّماك» في هذه الحالة تنمّي كلأً من الأشجار والأعشاب سريعاً.

وتكاد تكون رفاهية البدو في ذلك الفصل بخاصة مضمونة. ومع ذلك فإن مطر السِّماك، وإن جاء أوفر ما يكون، يمسي ضئيل الجدوى إن هطل على أرضٍ يابسةٍ لنقص الرطوبة من أمطار الخريف السابقة، لأن شمس الفصل التالي (الصيف) الحارّة ستستهلك كل شيء قد نفخ فيه السِّماكُ الحياة.

ويؤدي المطر الصيفيّ الوفيرُ إلى هلاك النباتات الموسمية، ويقوّي النباتات المعمرة (الدائمة الخضرة)، ويملأ الآبار، بلا استثناء بالماء.

وتصبح الأعشاب التي أنعشها مطر الصيف الغزير وافرة النماء، فتَمُدّ بسرعةٍ، أوراقاً جديدة وأزهاراً، ولكن بعد أيامٍ معدودات تمتص الشمس السافعة كل ما فيها من ماء ورواء، وتذويها أبكر مما لو لم يوقظها المطر الصيفي من مرقدها. أما الشجيرات، من الناحية الأخرى، فإنها، لِتمتُّعها بفترة اخضرار أطول، تنال رطوبة كثيرة جداً من مطر الصيف الغزير تمكنها من بلوغ نموها التام.

إن وفرة نماء النباتات المعمرة في الخريف أمارة لا تخطئ على أن المنطقة المعينة قد زارتها أمطار صيفية جيدة، ولذا قيل: «يا عينْ الخُشيفِ تَرْعى الخلْفى عُقْبَ الصِّيفي!». أي: يا لَعَيْن ذلك الخُشَيف (الغزال الصغير) سترعى مرعى الخريف بعد مرعى الصيف.

ويملأ مطر الصيف الوفير أيضاً البِرَك الطبيعية والمُعَدَّة معاً، لكن لا تلبثُ الضفادع «الدغاليص» ومختلف ضروب الديدان أن تغزو مثل هذا الماء، وسرعان ما تحيله كريه

الرائحة وغير صالح للشرب.

● الاستغاثات من أجل المطـر ●

إن لم تَحْظَ الأرض بمطر خريفٍ وفيرٍ فإن خطر الجدب (المَحَلْ، أو المُحْطِي) يلوح في الأفق، ولدَرْئِه تؤلف بنات البدو وزوجاتهم موكباً مع «أم الغيث»، فيُمَدُّ ثوب امرأة على عَصَوين ليتألف صليب، وتحمله فتاة عذراء على رأس الموكب تطوف من بيت لآخر مغنيةً:

يـا امَّ الـغـيـث غـيـثـيـنـا بـلِّي بْشَـيتْ راعـيـنـا
يـا امَّ الـغـيـث غِـيـثـيـنـا مْن الـمـطَـرْ إِزِّيـنـا
يـا ام الـغـيـث غِـيـثـيـنـا من مِـدّ الله مِـدِّيـنـا
يـا أم الـغـيـث غـيـثـيـنـا من الوبـل انـطـيـنـا[8]

المعنى:

يا أم الغيث أغيثينا .. بُلِّي عباءة راعينا (أي راعي مواشينا).

يا أم الغيث أغيثينا .. من المطر أسقينا
يا أم الغيث أغيثينا من مُدِّ الله أمِدِّينا[9].
يا أم الغيث أغيثينا من الوبل أعْطينا.

يا أم الغيث أغيثينا من الوبل أعْطينا.

البيت ـ ١ ـ: تدل كلمة «**غيث**» على مطر يستمر أربعة أيام في الأقل، على أرض واسعة. **بْشَيت**: عباءة رمادية [رقيقة] زهيدة الثمن، تغزل من الصوف، أو من رديء القطن.

البيت ـ ٢ ـ: تزيد الفتيات دعواتهنَّ شيئاً فشيئاً من أجل المطر، فيُرِدْنَ في أول الأمر مطراً يبلل عباءة الراعي وحسب، ثم يدعون من أجل مطر يدوم عدة ساعات.

البيت ـ ٣ ـ: إذا صب الله سبحانه وتعالى المطر من مكياله، أو إناء المطر، فإن هذا

يعني مطراً غزيراً مباغتاً.

البيت ـ ٤ ـ: وبل: الوبل مطر يستمر عدة أيام، ويغمر أراضي شاسعة. «تَطّي» تستعمل بمعنى «عَطّي»: أعطي.

١ ـ يا امَّ الغيثْ غيثينا دايمْ شَرّكْ بالينا
٢ ـ يا امَّ الغيثْ غيثينا دايمْ عَجٌّ عامينا
٣ ـ يا امَّ الغيثْ غيثينا وَحْيَ المَحَلْ يتْلينا
٤ ـ يا امَّ الغيثْ باتْقعا قتَلنا البَرْدْ وْصَقْعا

المعنى:

١ ـ يا أمَّ الغيثِ أغيثينا! إن شرَّكِ لَمُتسلِّطٌ علينا. معذِّبٌ لنا دائماً!

٢ ـ يا أُمَّ الغيثِ أغيثينا! فثمة رياح دائمة قوية تعمينا! (بما تحمله من تراب وغبار).

٣ ـ يا أمَّ الغيثِ أغيثينا! فشبَحُ المحل يَتتبَّعنا!

٤ ـ يا أمَّ الغيثِ يا جائعة! لقد قتلنا البَرْدُ وصقيعُه!

البيت ـ ٤ ـ: «البَرْد» أضعف من «صقعة». ويسمع في الصيف غالباً القول «بَرْدْ اليوم» أي: الجوّ بارد اليوم. ولكن «صَقْعة» لا تستعمل إلا عندما تخترق العظامَ ريحُ الشّمال الثلجيةُ الجافة.

١ ـ اللّي تَعْطينا بالغِرْبال جَعَل وْليدَهْ خَيّال
٢ ـ اللي تَعْطينا بالمِنْخل جَعَل وْليده يَدْخلْ
٣ ـ اللّي تَعْطينا بالحَفْنَهْ عسى عَدوّته لِدَفْنَهْ
٤ ـ اللّي تَعْطينا بالكَمْشَهْ جَعَل عَيونَها الرَّمْشَهْ

المعنى:

١ ـ التي تُعطينا بالغربال .. جعل الله ابنها خيّالاً

٢ ـ التي تُعطينا بالمِنخل .. جعل الله ابنها يدخل (على زوجه).

٣ ـ التي تُعطينا بالحفنة .. عسى أن تدفن عدوَّها [أي عساه يموت].

٤ ـ التي تُعطينا بأطراف الأصابع .. عسى أن تكون عيونها رَمْشاء (كثيرة شعر الرموش).

البيت ـ ٣ ـ : الحَفْنة: هي قدر ما تمسكه اليد. وقد أميلت راحتها إلى أعلا وثُنيت أصابعها.

البيت ـ ٤ ـ : الكَمْشَة: هي قَدْرُ ما يمكن قبضه بين الراحة والأصابع واليد مقلوبة.

اَرْكـــــبُوني الحاشي وابْــعِــدُوا بــكْماشي
دَمْــع عــيْني نَوَّاشِ على اللي فــارْقُوني

المعنى:

أَرْكبوني الجمل البَكر. وأبْعِدُوا من يقودني
دمع عيني قد فرغ .. لبكائي على من فارقوني[١٠].

الحاشي: بعير لم يبلغ بعد من العمر ثلاث سنوات. والناقة التي أكبر منه تسمى «جل». يعاني الجمل البَكْر من نقص الماء والمرعى، وتعاني الفتاة من الحزن لفقد حبيبها، وكل منهما سيهلك إن لم يَلْقَ رعاية.

أرْكبوني الحمْرا واطعْموني تَمْره الله يْطَوِّل عُمْره
يوم هم خلَّصوني

المعنى: أرْكبوني فرساً كُميتاً، وأطعموني تمرةً، أطال الله عمره لأنهم حرروني.

إنهم ـ أي أقاربها ـ أنقذوها من الموت بأن أعادوا لها عشيقها الذي لم يمت عطشاً في الغارة.

يا ذيبْ يا طارْدَ الْهيَف اطْــرُد هــبوب الشّمالِ
عينْت عَـلْـيا وأبو زيد أهْــلَ الْـقُصُورَ الـعوالي

المعنى: يا ذئب! يا من يكافح ريح الجنوب الحارة! اطرد هبوب ريح الشمال البارد لا بد أن قد رأيت «عَلْيا» و«أبا زيد» اللذين كانا يسكنان القصور العالية.

الذئب لا تضره الرياح على اختلافها، ولذلك بلغ من الكبر عِتِيًّا بحيث استطاع أن يقص كثيراً مما يتعلق بساكني القصور الخربة التي رآها.

الهيف: الريح الحارة الجافة التي تهب في الصيف من الجنوب الشرقي محدثةً الكثير من المعاناة، لا سيما للأطفال والنسوة.

الشَّمال: الريح الشمالية الشديدة البرودة، التي تقضي على النبات والحيوان والكائنات البشرية كلها. وإذا هبت واستمرت مدة تجمَّد العشب، ومرضت البهائم والناس معاً.

ولا تأتي الأمطار بعد ريح «الهيف» في الصيف، ولا بعد ريح «**الشَّمال» في الشتاء**.

والذئب يكافح ريح الجنوب (فهو: طاردها)، ويغلب ريح الشمال ويقصيها. **أبو زيد وحبيبته عليا**: بطلا قصص تحكي بين الحضر. ويفترض أنهما يملكان المدن الخربة في الوقت الحاضر، وأنهما عاشا في قصور ترتفع حيطانها المتهاوية على الأفق، على حدود الصحراء.

وتُقدَّم هديةٌ ما من كل بيت للصبايا المرافقات لأم الغيث. وبعد أن يُزُرْن بيوت الشَّعر كلها يختلفن مع «أم غيثهن» إلى خيمة صغيرة قد ضربت جانباً حيث يقتسمن أي شيءٍ أُعْطِينه ويأكلنه، ويخلعن العباءة عن الصليب، ثم يَعُدْن في المساء من حيث أتَيْن.

● حِقَبُ الرَّخاء والفاقـة ●

إنَّ مطرَ الوسم الوفيرَ، وبخاصة المطرَ «الثُّروي» أي مطرَ الثُّريَّا لَيَضمن للبدو ـ كما قلنا ـ مرعى غنيًّا من النباتات الموسمية أو الأعشاب «عِشِب»، ومن ثَمَّ رخاءٌ يدعى عموماً «رَبيع». وفي البراري الداخلية لا تدل كلمة «ربيع» على فصل من فصول العام، فيستحيل لذلك ترجمتها بكلمة « Spring : فصل الرَّبيع» كما نفعل حين نتعامل مع المناطق المأهولة والمزروعة.

ويتمتع الفلاحون، سكان المناطق المزروعة بـ «الرَّبيع» من عام لآخر، ولأنه يبدأ دوماً في الفصل نفسه، فإن الربيع لديهم يعني «فصل الربيع».

إن الملك جبرين ـ كذا ـ الذي يحكم سحب المطر لا يُكِنُّ حُبًّا لبلاد الرولة ولا للصحراء. ولهذا فهو يَصُفُّ أجنحته فوقها لكيلا تمطَر إلا على بقعٍ ضيقةٍ هنالك وحسب. أي حيث ينزلق المطر من جناحيه. وبخلاف ذلك. حين يطير فوق أراضي الفلاحين يقبض جناحيه إلى جسده قدر إمكانه. فتهطل الأمطار في كل ناحية.

إن جبرين في رحلته فوق البراري يضرب السحب ليضطرَّها إلى الإسراع الشديد في حركتها، لكنه يَدعُها وشأنها فوق الأراضي المأهولة فتمطر هناك مطراً غَدَقاً. ويفسر علماء القرآن سلوك جبرين قائلين إنه غاضب على البدو لعدم تقيدهم بالتعاليم التي نقلها إلى النبي محمد ﷺ[11].

وإذا لم تتشرب الأرض أية أمطار خريفية فلا ربيع إذن «الأرضْ اللي ما تِنْوسِمْ ما تربّعْ .. مُخْطيهْ». ويكون «الربيع» أعظم وأطول إن نالت الأرض قسطاً وافراً من مطر «السِّماك» بعد تَشرُّبها أمطار الخريف، فتتحول السهول قاطبةً، وحتى الصحراء، إلى مروجٍ بهيجة. وتُغطي في الحال ضروبٌ تفوق الحصر من النباتات الموسمية والشجيرات المعمرة كلَّ وادٍ وغورٍ ومنحدر ناعم، والسهول المكونة من الرمال الدقيقة الحمراء كلها، إضافة إلى الصدوع والمرتفعات. وتقضم الإبل من النباتات الشهية دون سواها، وتسمن حتى لا تكاد تقوى على الحراك. وكثيراً ما كان الحليب يسيح من ضروع الخَلِفاتِ (النوق الحلائب) الممتلئة بالحليب. وتطوف الأفراس ذكوراً وإناثاً في أَلحُن عشبٍ، ويملك البدو رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً، من الحليب الحُلْوِ والحامض، وشحومِ الإبل أكثر مما يعرفون ماذا يصنعون به، وأكثر من ذلك يحيا لديهم الأمل في ربحٍ مؤكدٍ من بيع النوق الفاضلة عن الحاجة، أو المسِنّة، أو العقيمة، للمشترين من «عُقَيل» الذين يدفعون أثماناً طيبة لقاء الحيواناتِ السمينة.

وفي الأراضي التي بها «ربيع» تُرى بيوتُ الشَّعر مبعثرةً في شتى الأنحاء. ولوجود كثير من المراعي الطيبة القريبة من بيوت الرعاة فإنهم لا يَعْزُبون بإبلهم إلى المراعي النائية.

ويتوفر ماء المطر الباردُ النقيُّ في كل منخفضٍ، أو صدعٍ في صخرة، أو حفرةٍ في بطن وادٍ. وكل يستحمُّ، وتُغسل الملابس، ويُقضى على شتى أنواع الطفيليات. ويهرع الشبانُ في أواسط النهار، وفي المساء، إلى الغدرانِ في قيعانِ الأوديةِ للتوضؤِ، ويستحمون كلٌّ على حدة، الفتيانُ في مكان، والفتيات في مكان، وتُسمع في كل صوب صيحاتُ ابتهاجهم وأغانيهم المنوعة. ويُطبخ في البيوت الفُطْر، والكَمْأة، والبصل البري الصغير، والخضروات الطازجة، ويُسْتَمْتَعُ بها.

واسم الفطر المحلي هو «الهُوبَر»، وهي تنبت بعد أمطار الليل الدافئ: (إمْطِرْ بالليل وراح يَتجنَّى الهوبر). ويخرج صباحاً بعد مثل تلك الليالي الرجالُ والنساءُ معاً بحثاً عن ذلك الطعام الشهيِّ الذي ينمو خير نموٍّ قرب التُّرع، بينا تفضل الكَمْأة التربة المختلطة بالرمل، وتُكوِّن الأخيرة عند اقترابها من السطح كتلاً صغيرة شبيهة بالقبعات تسترعي عين الملتقط، فيقلب التراب الذي يغطيها عندئذٍ باليد أو بعصاً، ويحفر عن الكَمَأ، وتُغلى عند طبخها بالماء المالح، وتقدم مع الزبدة أو شحم البعير. وهنالك طريقة أخرى هي خَبزها بالمَلَّة بعد تمليحها تمليحاً تامّاً.

وثمة ضروب ثلاثة من الكَمْأة (الفقع): الكِما، والزُّبيدي، والخَلاسي. بعد أن جمع بدوي كوماً منها صنفها في بيته حسب أنواعها قائلاً: «الكَمِّيْ لامَّ البُنَيَّة، الزَّبيدِي لامّ وْلَيدي، الخَلاسي لْراسي»! أي: هذه هي الكُمَيَّأةُ ستنالها أم البُنَيَّة، وهذه «الزبيدي» سأعطيها أمَّ بُنيَّ، وخيرها «الخلاسي» سأبقيها لنفسي!.

ويستمتع البدو جميعاً أيّما استمتاع بالبصيلات الصغيرة لبعض النباتات البرية وبخاصة الطَّيطَه، والرُّبَحْلة، والكراث .. إلخ. وتبعث الأمهات بَنِيهن للبحث عنها بقولهن: «عيالي يا عيال الطَّيطَهْ، وامْطُ لكم مُطيطه» أي: يا بَنيَّ الصغار أحضروا لي الطيطة وسأُعدُّ لكم مُطيطة (طعام من البصل البري المدقوق).

وينمو «السمح» بأصنافه المتفرعة منه: «الدّعاع» و«الحَوَّا» في السهول التي شوتها الشمس شيًّا، والمدعوة «الحماد»، في سنة الخصب. وإذا نضجت هذه النباتات وكانت ماتزال غضة فإن البدو يطلبونها، ويضعونها في حُفَر بعيداً عن الماء أو في أكياس، فإذا جفت ضُربت بالعِصِيِّ، وهُزَّت، ووضعت البذور «الكعبر» التي سقطت على الأرض في

أكياس «عدول» وجيء بها إلى الغدران حيثّ تترك إلى حين، أو تنقع في الماء، في الأقل، حتى تسقط قشورها اليابسة. وأحياناً تُملأُ أحواضُ الماء الجلديةُ الكبيرةُ ماءً وتوضع فيها القشور بثمارها، وبعد حين تنتفخ وتنفجر، فيُرمى بالقشر الذي يطفو على السطح بعيداً، بينا تُنشر البذور النظيفة على بساطٍ وتترك لتجفَّ، أو يضع البدو الأكياس الملأى، وهي لما تزل رطبة في الشمس، ويهزونها حتى تَسَّاقط البذور إلى القاع، ثم يلقون القشور بعيداً، وينظفون البذور ثانيةً لتكون صالحة للأكل في موسم مجدب. ويدعى هذا «سِمِحْنِهْ» أو «سِبِيب».

وتعتمد الخصوبة أو الوفر «الربيع» اعتماداً تامًّا على نمو الأعشاب والنباتات الموسمية نموًّا جيداً، لا على نُموِّ الشجيرات أو النباتات المعمرة، فهذه تخضرُّ حتى بعد مطرٍ صيفيٍّ جيِّدٍ، إذا كانت الأرض قد سقيت سقياً حسناً «مصيوفه»، لكن المطر الصيفيَّ لا ينفع النباتاتِ الموسميَّة لأن حرارة الشمسِ لا تلبثُ أن تحرقها.

وفي سنة واحدة ربما لا يكون لدى قبيلة «ربيع» بتاتاً، ويكون لدى قبيلة أخرى، بل ومجاورة، وفرةٌ من كل شيء. ويكون التباين أوضح إذا كانت القبيلتان متعاديتين. يقولون في مِثْل هذه السنة: «هٰذي السَّنَة وْلَهَا سْنُون، ناسْ يَعيشون وناسْ يموتون».

ويقسِّم البدو «الرّبيع» إلى أنواع منها «ربيع الماش» ويعني فصلاً يتألف منه «الربيع» برُمَّته من رقعٍ نباتية متشتتة لا تكفي حتى لإطعام أصغر الإبل. و«ربيع الصَّفارَى» حين لا ينمو إلا «الصَّفَارَى» بأزهارها الصفراء. و«ربيع الدِّمْنَه» حين لا تهطل أمطار سماكٍ على الأعشاب مع أن براعمها ربما تكون قد بَدَتْ ونمت نمًّوا حسناً بعد مطر الموسم والمطر الشتوي، فتصفر مبكراً، أي في آخر مارس. و«ربيع النفجان» حين تُغَطَّى السهولُ والأغوارُ جميعاً بسجادة كثيفة من العشب. وأخيراً «ربيع الطَّفحة» حين لا يتوفر مرعى خصبٌ في المنخفضات وحدها بل في المنحدرات كلها.

وكما يحنّ البدو حنيناً قويّاً لِسِنِي «الربيع» فإنهم يخشون سنوات العوز أو «الخَوَا». وإذا لم تتوفر الأمطار في أشهر الخريف بقدرٍ كافٍ مدة عامين أو ثلاثة فلا عشب، وعلى الإبل، حينئذٍ، أن تقتات الشجر وحده. إن أمطار الشتاء «الشَّتْوِي» لَتُضحم هذه النباتات ذاتَ الخضرة الدائمة، لكنها تجف خلال أيام «السِّماك» الحارة فلا تشتهيها الإبل،

ومن ثَمَّ تبدأ «أيام الخَوَا» أو «أيام العوز» الحقيقية، وهي فترة تَنْفَق فيها إبل كثيرة.

لكن إن لم تهطل الأمطار الصيفية «الصيفي» أيضاً لم تورقْ شجرة واحدة. وتَسَّاقطُ فروع الشجر التي نمت في السنة الفائتة لتكسرها الريح وتفرقها، وسرعان ما تتحول الأرض إلى صحراء مَيْتَةٍ ومتعاملة مع الموت.

هذا هو عمل الشمس الأنثى التي غايتها الوحيدة التحريق والتدمير.

الطقس الحار والبارد؛ الطَّلّ؛ الريح؛
الضباب؛ السّراب والعواصف الرملية

يُحدث أشد الحرارة المسمى «حَمَّ الكِلِّيبين» في فصل القيظ. وأشد الحرارة بعد ذلك «حَمّ سُهَيل»، وهو الفصل الذي يأتي قبل طلوع سُهَيْلٍ مباشرة. وإذا اختفت الثّرياء من السماء جف كل عود «الْبَاغَابتْ الثُّرَيَّا كِلّ عُودٍ يبسْ».

وأبردُ الفصولِ كلِّها فصلُ الشتاء مع بضعة أيام قبله وبضعة بعده.

ويكون الشتاء الحقيقي «المَرْبَعَانِيَّة» من ١١ ديسمبر حتى ٢٠ يناير. ويتبع بَرْدَ الشتاء سبعُ ليالٍ سامةٌ «سَبْع سَمّ»، ثم تليها سبعٌ دموية «سَبْع دَمّ»، وأخيراً سبْعٌ إمَّا أن يزداد فيها شحم الإبل أو أن ينقص «يسير الدّسَم ولا يسير». ولتبيان ذلك يحمل القول بأن ليالي الأسبوع الأول والثاني بعد «المَرْبعانية» غالباً ما كانت من البرودة بحيث تحيل حياة الإنسان والحيوان معاً بائسةً. إن أنوفَ الجمال لتسيل دماً من أثر البرد. ولا تبدأ الليالي الباردة بالتناوب مع الليالي الحارة قبل الأسبوع الثالث أي نحو منتصف فبراير، فتكون الأرض دافئة أثناء النهار، لكن تبرد، في الليل، طبقة الهواء إلى أعلى من متر واحد فوق سطح الأرض حيث يعاني العملاقان «أي الجمل والنخلة» كثيراً من البرد «بَرْدْ الطِّوِيلين». وتُغَطَّى في الشتاء «المَرْبَعانية» منطقةُ تدمر كلُّها ومناطقُ الحماد والوديان والحِجرة والخُنُفه وحِسْيا كلُّها، وحتى النّفودُ بالصقيع الأبيض «الحَلِيت»، وتبيضّ حينذاك الأشجار والشجيرات بالجليد في تدمر والحماد وحِسْيا على هيئة رقائق كبيرة «ثوبرات» بانتظام في كل عام، ولكنه لا يمكث على الأرض، بصفة عامة، أكثر من يوم واحد إلا في تدمر فيظل أحياناً مدة أطول من ذلك مسبِّباً خسائر جسيمة لمالكي

الأغنام والماعز.

والطَّلّ «أو النّدَى، أو الطُّفَل» كثير طوال العام، لا سيما خلال أشهر الصيف. ويرسله القمر لينعش كلاً من النباتات الموسمية أو الأعشاب «عِشِب»، والنباتات الحولية أو الشجر التي إن لم تنعش على هذا النحو فإنها لا تقوى على تحمل حرارة الشمس.

ويسقط البَرَد ـ بفتح الراء ـ أحياناً بدلاً من المطر أو معه، وغالباً ما كان البَرَد من كِبَر الحجم بحيث يجرح، بل ويقتل الإبلَ الفَتِيَّة.

ولا أحد يجرؤ على سب الريح لأن كل نسمة هواء قد أرسلها الله سبحانه وتعالى. وتُدعى الريحُ الخفيفةُ «هَوَاء» وأيضاً «هبوب»، والقويةُ «صَلْف».

وأكثر ما يهب من الرياح الجنوبيةُ الغربيةُ. وتنشط في الصيف كل يوم بانتظام ساعتين بعد الظهر فتبرِّد حرارة اليوم وتدعى «بَرَّاد» ـ بتشديد الراء ـ، أو «ذَعْذاعي».

وتكاد ريحُ الشَّمال «الشَّمالي» لا تهبُّ إلا خلال فصل الشتاء مُشتِّتَةً السُّحُبَ، ومُتشربةً ماءها، ولذلك تسمى «السّلابّيَه»[١٢].

ويحب البدويُّ في الشتاء ريحَ الجنوبِ «القِبْلِي» حُبًّا جَمًّا، لأنها مصحوبةٌ دوماً بالمطر «السَّقْيَة».

وتهب ريح الشرق «الشَّرْقي» أو «الشَّرْقِيَّة» في العادة، ثلاثة أيام أو أربعة فقط، وتتبعها دائماً الريح الغربية.

وعند انتهاء فصلي «**السماك**» و«القيظ» تكون هذه الريح قويةً قوةً متميزةً فتظل هابةً مدةً قد تصل إلى سبعةِ أيامٍ بلياليها. إنها تدعى «سِمُوم»، وهي جافة جفافاً مفرطاً وساخنة، وتسبب الكثير من المعاناة لا سيما للنساء والأطفال. ولو استمرت هابةً أكثر من سبعة أيام لهلكوا عن بكرة أبيهم.

وتهب في الشتاء أحياناً الريح الشمالية الغربية «النَّكْبَه» ويكون ذلك عادةً في الليالي التي لا يظهر فيها القمر حيث تتلألأ النجوم فقط. وتدعى الليلة من هذه الليالي «جِرْد» ـ بكسر الجيم ـ إنها مشرقة جداً لكنها باردةٌ برداً قارساً.

وإذا هبت ريحٌ غربيةٌ قويةٌ لكنها باردةٌ سميت الليلةُ «شَلْتا». وتعرف الليلةُ الدافئةُ التي تكون فيها السماء صحواً بـ«قَمْرازريق». وتدعى الليلةُ الدافئةُ التي تكون السماء فيها غائمةً «ظلا دِلقس»، والليلةُ المظلمةُ الممطرةُ «غَدْرا».

وإذا كانت الرؤية في يوم مشمسٍ غيرَ جلية، وعلى الأفق ضباب خفيف تُحُدِّث عن اليوم بأنه «غَطاطٌ ما يَعْطي الشوف».

ويكون الطقس معتماً نوعاً ما في الظهر خلال أيام القيظ، وتشبه الشمس أسطوانةً يميل لونها إلى الصفرة، هذه هي «الكَتْمة» أو «الكتام».

وينتشر فوق الأرض في الخريف والشتاء ضبابٌ رطبٌ كثيف «قُبَيس» أو «كُبَيس». ويظن البدو أن الضباب يسمع كما يسمع البشر، ويخشى الثعلب، ولذلك يصيحون به: «يا باكُباسْ عَنَكْ الثَّعْلِب» أي: يا أبا الضَّباب! اهرب[١٣].

إن الرَّولة يعدون الضَّباب من عمل الجن، لأنه يبدو في العادة للعيان متصاعداً من الأخاديد والصخور المصدعة، حيث يلبث مدة أطول. وإضافة إلى «القُبيس» في الفصول الباردة، فإن «العَجَاج» والسرابَ، اللّذَين يكونان في الفصل الحار «كالقبيس»، عملُ الجن.

وفي الأيام الحارة المشرقة، وبخاصة في الظهيرة، تبدو في سهول الحماد التي لفحتها الشمس بِرَكٌ كثيرة قد أحاطت بها سياجات من الشجيرات والأعشاب الطويلة فيحث المرء الغريب، مخدوعاً بالمنظر الذي بدا له، مطيّته النَّصِبَةَ إلى الماء القريب جداً، ويعجب لِمَ لا يحث الحيوان خطاه. لكن البهيمة في هذه الحالة، أعقل من الإنسان الغريب الذي تعوزه التجربة، فهذه البرك والمستنقعات ليست بمستقرة على اليابسة، إنها تتبخر في الهواء وحسب فإنْ هي إلا سراب.

وفي أحايين أخرى أيضاً يثير الجن ريحاً عاصفاً تصحبها غيومُ غبارٍ وترابٍ يسوقونها نحو البدو محاولين إعْماءهم، وإسقاطَ بيوتهم، فتدفن كلَّ شيءٍ حيٍّ. وتُدعى مثلُ هذه العاصفة «عجاجةً».

إن الأيام التي تهب فيها عواصف الرمل لمفزعةٌ. وإن الليالي لأكثر منها إفزاعاً.

وتبدو في الأفق من جهة الجنوب سحب صغيرة قاتمة. وتسكن الريح. وتتلفع الشمس بأقنعة مرتعشة. ويستولي على الناس شعور غريب محزن. وتكون الإبل هائجةً مُسْتَفَزَّةً فتتجمع جماعاتٍ. وتكف عن الرعي. ثم تكبر تلك الأقنعة الصغيرة إلى أن تضحي سحابةً ذات علوٍّ كبير فَتَسُدَّ الأفق. وتمضي في الارتفاع باعثة إلى الأمام ضجيجاً ذا حفيف عنيف. وقبل مضيٍّ طويل وقتٍ يظهر أمامها حائطٌ أسودُ يظل متقدماً نحو الوجهة عينها. ويزداد الحفيف. ويتحول إلى زئير وحشيٍّ. ويأتي الحائط مُلْتَفًّا يغطي كل شيء بالغبار والتراب حاملاً أيَّ شيء يعترض طريقه. ودافناً كل ما لم يستطع حمله.

التعليقـات

(٠) هذا هو الفصل الأول من كتاب «أخلاق عرب الرولة وعاداتهم» الذي يقوم الكاتب بترجمة القسم الأول منه من الانكليزية. ويقوم بترجمة القسم الثاني الدكتور عبدالله بن علي الزيدان.

(١) في الأصل: «الحوت». وأنثناها لتناسب الإشارات الكثيرة إليها على أنها أنثى والتي وردت في النص.

(٢) ترجم المؤلف «الظالمين» بـ«أولئك الذين يسيرون في الظلماء» وهو خطأ مستغرب وقوعه من أمثاله!

(٣) الشائع في نجد «صكة عُمَيّ» بدون «أل». وانظر محمد بن ناصر العبودي، الأمثال العامية في نجد، الرياض (د.ت) ٢/٧٣٠. والمثل فصيح قديم بهذا اللفظ (أي بدون أل).

(٤) أي التوائم: الربيعان والجماديان.

(٥) لست أدري، ولا المنجم يدري، من أين جاء المؤلف بهذا المعنى لـ«استهلت».

(٦) الحديث عن الذهب تحميل للنص فوق ما يحتمل. فلم ترد كلمة «الذهب» في النص. وتفسير «ذهاب» بـ«ذهب» وهم من المؤلف.

(٧) تأمل أيها القارئ الكريم في الحالة المُسِفّة المؤسفة من الجهل المطبق الذي شاع بين هؤلاء الأقوام بحيث فشت فيهم كثير من أمثال هذه الخرافة.

(٨) تبين هذه المقطوعة ولاحقتها الحالة الدينية المتردية التي عاشها الرولة في أوائل القرن الهجري الماضي، (أوائل القرن العشرين المسيحي الحالي) فقد انتشرت بينهم، لجهلهم، هذه الشركيات السخيفة.

(٩) «المدّ» هو (المُدّ) بضم الميم: المكيال المعروف. هذا هو المقصود اهتداءً بترجمة المؤلف للكلمة. لكن قد يكون المراد: «مِنْ مَدّالله» ـ بفتح الميم ـ أي من عطاء الله وإمداده.

(١٠) ترجم المؤلف عجز البيت الثاني هكذا: «لبكائي على من فصلوه عني»، وما أثبتناه أدق، كما يدل عليه نص العبارة، لأن الفعل الأخير رسم هكذا (Fârakûni) لا (Farrekûni).

(١١) لا بد أن المؤلف ذكر هذه العبارة بناء على ما سمعه من الرولة. إذ لا نخاله يجهل أن هذا كلام خرافة!

(١٢) لعل الصواب «السّلاتة» أي التي «تسلت» السحب، أي تمحوها.

(١٣) هكذا. والمعنى الدقيق هو «أيها الضباب جاءك الثعلب» أي: فاهرب!

أخلاق عرب الروَلة وعاداتهم



للمستشرق التشيكوسلوفاكي ألويس موزل (١٨٦٨ ـ ١٩٤٤م)
ترجمة الدكتور محمد بن سليمان السُّديس

الأطفـــــال(*)

ولادة الأطفال وتسميتهم

يقال للمرأة التي مارست اتصالاً جنسياً مع رجل (وَحَمَه) خلال الأيام الثلاثين التي لم يتضح فيها ما إذا كانت المرأة قد حملت أو لم تحمل. فإن كانت قد حملت دعيت «نازلاً» أو «حاملاً».

والمرأة الرويلية لاتطلب عند ولادتها قابلةً أبداً . فزوجُ كُردي ، مثلاً ، ولدت طفلاً وهي راكبة على قَتَبٍ على ظهرِ ناقتها والقومُ ظاعنون ، ولم تتوقف عن توجيهِ بعيرها . لقد قطعت حبل السُّرَّةِ بنفسها ، ولفَّت الرضيعَ بثوبها ، وترجلت عن مطيتها في المَقْطَن الجديد ، ثم حملت الطفل (العيِّل) إلى بيتها .

والمرأة التي ترمي مافي بطنها ، والتي مات ما في رحمها (رِمَّا) تكون موضع خوف .

وتعيش النفساء كما كانت تعيش قبل الولادة فلا تغير في نوع الطعام الذي تتناوله .

واذا وُلِدَ وَلَدٌ ذَكَرٌ هَنَّأ الأبَ أقرباؤُه الأَدْنَوْن ، لكنه لايظهر تعبيراً عن سرورٍ غير اعتيادي. كما لايدعو لعشاءِ لَحْمٍ . ولايُضحَّى بحيوانٍ أو يُذْبَح عند ولادة غلامٍ أو جاريةٍ .

ويغسل الطفل مدة سبعة أيام بعد ولادته ببول النوق ، ويمسح جلده بالملح .

وفي اليوم العاشر ، أو العشرين أو الأربعين ، تَجْمَعُ قريباتُ النفساءِ القمحَ ، ثم يُسْتَخْرَجُ من سنابله ، ويُعَدُّ منه طعامٌ في بيتها تدعى إليه نساءُ الحي جميعاً . هذا الاحتفال يدعى «طْلاعَة العيِّل» .

وتذهب الأم بطفلها لزيارة أقربائها جميعاً ، وتُدعى هذه العادة (تطليعَه) .

وكلٌ يهدي للطفل شيئاً ، غالباً إما قَعُوداً أو مُهْراً ، وتَظَل الهدايا مُلْكاً له .

وتُسمي الأم ، دون سواها ، طفلها . هذا أحد امتيازاتها . وهي أحياناً تختار اسماً دون أن تُطيل التفكير فيه ، وفي أحيان أخرى قد توجهها تأثيرات شتى .

وهكذا وَلَدَتْ زوجُ الأمير النُوري ، على سبيل المثال ، صبيًّا حين كانوا قاطنين قرب قصر الاخيضر[1] ، أو كما يسميه الرولة الخفاجي ، فسمت الصبى (خفاجي) ، وامرأة أخرى ولدت والسماء تمطر مطراً صيِّباً ، فسمت ابنها الصغير مطراً ، وولدت زوج كردي ابنتين مع أنها كانت شديدة الرغبة في أن تلد ابْناً ، فكانت تدعو الله ، وقد منحها ما أرادت بعد حين ، فسمت الصبي رجاءً .

واستعصت ولادةُ زوجِ عودةَ الكويكبي (تَعَسَّرَت) ولذلك قالت : «سَتُسَمَّى عسيراً» .

وامرأة أخرى امتلأت غيظاً لأن زوجها كان قد تزوج توًّا زوجاً ثانيةً سَمَّت ابْنَها مُغيظاً .

وتلقت زوج العبد حمار أبو عواد ضرباً مبرحاً على يديه قبل أن تلد ذكراً بقليل ، ولاتفتاً مغاضبةً له ، فسمت الصبى (زَعَلاً) في ذكرى سوء معاملة أُمِّه . ولما ولدت بنتاً بعد ذلك بقليل ، قالت : إن اسم أبوكِ «حمار» وسيكونُ اسمكِ «بَقره» .

وليس ثمة بهيمةٌ أو نباتٌ لايمكن تسمية الطفل بها .

حتى السابعة يقال للطفل «وَغَد» (الجمع : وُغْدان) ، أو «وَرَع» (الجمع : وِرْعان) ، أو «عَجِي» (الجمع : عَجْيان) ، وبعد السابعة يقال للولد «عِيال»[2] . واسم الطفل الصغير الميت «فَرَط» (الجمع : أفراط) . ويجب إحضار (تميمة) لهؤلاء في العيد التذكاري القادم لذكرى الميت (ضَحِيِّه) .

● مراسم الختان ●

يختن الرولة أبناءهم بين السنة الثالثة والسابعة من أعمارهم ويكون ذلك عادةً في فصل الصيف (في أواخر أبريل أو مايو) إما يوم الإثنين أو الثلاثاء أو الخميس ، قبل اليوم الخامس عشر من الشهر القمري مباشرةً أو بعده مباشرة .

وقبل الختان بيومين ، تتوافد على بيت الرجل الذي سيختن ابنه الفتيات من الحى كله فيزركشن عمود البيت الرئيسي بريش النعام والخِرَقِ الحمراءِ والأشرطةِ (غَزَّوْا الـمْصَنَّع)، ويُعْلِنَّ بالصيحات السعيدة (زَغْروت) أن ختاناً (مْصَنَّع) يُستَعَدُّ له .

وبعد غروب الشمس يتجمع شباب الحيّ من كلا الجنسين هنالك . ويؤلف الشبان نصف دائرة مفتوحاً تجاه البيت ، حيث تشتعل نار عظيمة ، ثم تقف بين النار والشبان فتاة بالغة مغطاة الوجه حتى لايرى سوى عينيها ، وتمسك (الحاشي)، كما تُدْعَى هذه الفتاة ، بيمينها خنجراً حادًّا ، فيبدأ الفتية يضربون الأرض بأرجلهم ، ويصفقون بأيديهم ، ويميلون أجسامهم يميناً وشمالاً وإلى الأمام وإلى الخلف ، صائحين بنغماتٍ عميقةٍ : انتبهى! . . انتبهى! ، (دَحّي دَحّي)، ويَمَسُّون الفتاة بأيديهم فتتراجع وتدافع عن نفسها بالخنجر ، فيعزز الشبان حركاتهم ويهاجمون الحاشي بعاطفة أقوى ، بينما تدير هي الخنجر بحماس أكثر ، فيلمع الخنجر كالبرق ، ثم تتنحى الفتاة وتتراجع وتتقدم ، وحركاتها كلها يعكسها وهج النار خلفها ، وتَحِنُّ الأرض تحت أقدام الفِتْيَةِ الخابطين وهم يصيحون بأصواتهم العميقة الخشنة من الإعياء والشهوة : «دَحّي دَحّي» فإذا تعبوا سقطوا سَقطة رجل واحد وتصنع الفتاة كما صنعوا . . ويستمر اللعب حتى تقفز الفتاة ، التي تكاد تسقط من الإنهاك ، وتهرب .

ثم يستريح القوم برهةً . وأحياناً يتلو شابٌّ قصيدةً ، ويهتف الرجال والنساء الحاضرون بعد كل بيت : (ياهَلاَبَكْ ياهَلَا) وحالما تنتهى القصيدة ، يقدم المضيف فتاة أخرى في المشهد ، وتبدأ التسلية (الدَّحَّة) من جديد .

وبصفة عامة ، يكون ثمة ثلاثُ فتياتٍ (حِشْيان) أو أربعُ تَخْلُفُ كلٌّ منهن الأخرى ، ولاتنتهي (الدحة) حتى شروق الشمس . ويعادُ في الليلة التالية الشيءُ نفسه .

وفي صباح اليوم الثالث يُحضِر الأب أو أقرب أقرباء الطفل الذي سَيُخْتَنُ ناقة أمام البيت ، ويقطع عروق يديها بسكين ثم ينحرها وسط زغاريد النسوة . ويقال لمثل هذه الذبيحة «ذبيحة الـمْصَنَّع» . تتشرب الأرض دمها ، ويطبخ اللحم في قدور راسيات ، وفي الوقت نفسه يُعِدُّ أقرباء الصبي الخبز ، أو البر الرقيق المغلى «العيش» .

وإذا جاء الظهر حملت النساء الخبز والعيش واللحم إلى بيت الأب حيث بإمكان أى انسان أن يدخل ، بهذه المناسبة ، ويأكل حتى يشبع . ويدعى هذا الغداء «عَنيّة الـمْصَنَّع» . وبعد الغداء ، يضع الأب ، أو إن كان ميتاً ، أقربُ الأقرباءِ الولد في حُجره ، وهو مرتد ثياباً سوداء في ذلك اليوم ، ثم يقطع غُلْفَتَهُ بسكين حادة . . فيصيح الطفل من الألم ، وتزغرد النسوة من الفرح ، ويتقافز الفتيان على جيادهم ، ويطلقون نيران بنادقهم ، ويقومون بمناورة قتال «طْرادَ الخيل» أمام البيت. وحين يهدأ الصبي قليلاً ، يغسلونه ، ويلبسونه ثياباً بيضاء ، ويقدِّم الأقرباء هدايًا من كل صنف ، كالملابس والأسلحة والأفراس والإبل الأبكار . . إلخ . هذه الهدايا (النِّحِيله) تكون للولد وحده . وحين تنتهى مناورة القتال يتسلى الرجال بالرمى نحو غرض . وذلك الغرض هو رأس الناقة الذبيحة الذى يوضع بعيداً نوعاً ما من بيت المضيف الذي يبدأون الرمي منه . ومن يُصِبْه يأخذْهُ ويطبخْه لنفسه .

● أهازيج تُغنَّى في مراسم الختان ●

تؤلف الفتيات مساء صفين في الغناء الذي أمام البيت وتتقدم اثنتان منهن داخل الطريق الذي بين الصفين . وتكون إحداهما حاسرة الرأس ، منقوضة الظفائر . . ترقص مميلة كلًّا من رأسها وجسدها يميناً وشمالاً إلى الأمام وإلى الخلف . . لكنْ عليها أن تثبت في مكانها ، ولمنع ابتعادها عنه تمسك الفتاة الأخرى بيديها أثناء الأداء . وتصفِّق الفتيات الأخريات مع حركاتها تصفيقاً هادئاً ، ويغنين أهازيج تدعى «حفلة» ، وهذه الكلمة هي أيضا اسم الرقص .

عَشِيــرِكن يـاهَــالْغنــاديـرْ   مـابِهْ رَجـا لورَجَيْنَـاهْ
والـلى يْتَغَـالَى[٣] المخـاسِيرْ   دور الخــواطـر بِـلِيَّـاه

المعنى :

ان زوجكن ياذوات الملابس الحسنة ، لارجاء فيه . . ومن يجد الثمن غالياً فلماذا نهبه الوصل بلاثمن؟[٤]

المرأة التي تحب اللباس وأن يدار بها في هودج تحتاج زوجاً لايمانع في النفقة التي يتطلبها ذلك ، فإن لم يمنحها واحد كل ماتريد بحثت عن آخر أكرم منه .

يـاراكِـبَ المَلحْـا كِـزَّ المـكـاتـيـبِ
وانْ دَنِّـقَـتْ تَـرْعـى عـطهـا المِـشـاعـيـبِ

المعنى :

أيا راكب الناقة الملحاء (أي السوداء)، اثْنِ الرسائلَ ثانيةً وحافظ عليها .[٥] فإن خفضت رأسها لترعى ، فاضربها بالعِصيِّ (أي لتسرع في المسير) .

تشتاق الفتاة لكلمة من حبيبها الذي مضى مع بعض تجار الإبل إلى مصر ، وتحث الرسول الذي يحمل الخطابات إلى الشيخ أن يسرع .

زاعُـوا من العيدْ وْمِقْفِيـنْ وْمـنَشْرِيـنْ الـدَّلّالِ
عِـلْمِي بِهُـمْ بِـالمَقـاطِـينْ ومْـرَكّـِزِيـنْ المَـقـام[٦]

المعنى :

لقد رحلوا بعد العيد ولكن نحو الجهة الأخرى ، وقد ارتدوا أحسن ملابسهم .
عهدي بهم في الأحياء ،[٧] وقد نصبوا المقام .
علمت الفتاة أين حل أهل حبيبها .

العيد : هو عطلة (الضحية) حيث يضحى البدو بناقة لكل فرد من أهلها يكون قد مات في السنة الفائتة . مقفين : تعني أنهم لم يتبعوا الآخرين في حركتهم إلى الأمام ، بل اتجهوا إلى الوجهة المعاكسة . وقد نزلوا قرب مورد مدة طويله (مقاطين). كلمة (مقطان) تدل على المكان

الذي يقيم فيه البدو إقامة طويلة في فصل الصيف ، ومن هنا : (قَطَنَّا على القَارَهْ «تعني : أقمنا طويلاً في القارة». المقام : هو عدةُ رفعِ الماءِ الخشبيةُ ، تربط فوق جانب بئر عميقة (انظر كتابي : بلاد العرب الصحراوية ، شكل ٣٥ ، ص ١٦١). ولاتعد مثل هذه العدة الا حين يعتزم العرب الإقامة في ذلك المكان بعينه طويلاً . وبتلك المناسبة يرتدون أحسن ملابسهم ، وتلبس النساء أجمل ثيابهن «مُنَشّرِين الدلاّل».

ادْعُـو راعـى الـشُـوشِـهْ   النوري ما أحلى هُوشِهْ
يـامْشَـرِّدِ لَلرِّدِي بُـوُشِـهْ   ياحُـوس التِّـرْكْ يـاحُـوشِـهْ

المعنى :

ادعوا بطول العمر لصاحب الشعر الكثير ، النوري ما أحسن قتاله!
يامن يشرد الإبل التي ينهبها النَّذْل! إن قتاله شبيه بقتال الأتراك .

المعنى :

ادعوا : تعني «ياطويل العمر». حين المضي إلى المعركة يحسر كل راكب عن رأسه ، فتبقى غترته على كتفيه ، ويبقيها على الجسم وزن العقال المعلق حول الجسم . الشوشه : الشعر القصير غير المظفر في أعلى الرأس ، ولايترك عادة إلا خصلة منه ، ويحلق الباقي .

مَشَرِّدْ : (أو يفِكّ) بُوشه : يُطْلِق غنيمته ، القتال مع الأتراك (أي مع الجيش النظامي) صعب على البدو ولذلك فهم يعجبون به .

يـامْنِيفِهْ يـامِـزْنـةَ الصَّيفْ   يـابْـرُوقَـهـا يِـلْعْـجِـنَّ
تلعب على البِيضْ بالكَيفْ   وِشْ عـاد لـو يِـزْعَـلِنَ

المعنى :

يامنيفة يا من تشبه مزنة الصيف ، ما أجمل بروقها اللامعة! تلعب بالفتيات كما تريد ، وماذا يُهِمُّ إن غضبن؟[٨]

في أواخر أبريل ، حين يبدأ الصيف ، تصحب المطر عواصف عنيفة تجدد الجو تجديداً كبيراً . منيفة ، زوج أكبر شيوخ القبيلة ، لاحاجة بها لتحسد رفيقاتها ، لأنها تمتاز عليهن بالجمال والسلطة .

يـابـيـت أبُـو نَـوَّافْ	يـامِـنْـوَةَ الـبـادي
وِرْوِيِّـهُـمْ بـالـقـيظْ	خَـبْرا لَـلْوَرَّادِ
وصْـحُـونُهُمْ بـالـلـيل	تـوحـي لهـا مْـنـادي
تحـوفـهـنْ مْـنـيـفـه	يـابِـنْـت الاجْـوادِ

المعنى :

يابيت أبي نواف ، يا أمنية المسافر ليلاً ! . .

وروايام في القيظ كالغدير الكبير الذي يجلب منه الماء ! . .

ولصحونهم في الليل منادٍ تسمعه [يدعو الجائعين إليها] . .

لقد أعَدَّتْهُنّ منيفة ابنة القوم الكرام الأجواد . .

أبو نواف «هو الأمير النوري» ، وزوجه منيفة ، ابنة للمرحوم الأمير سطام .

«بادي» : مثل «ساير» تعني : المسافر في الليل ، أو الزائر . تشعل النيران المتوهجة قرب كل من قسمي الرجال والنساء من البيت فتجذب المسافر حتى عن بعدٍ جدٌ عميق .

«رْوِيِّهُم» : الرّوِيّ هى «الرَّوَايا» أو حقائب الماء ، تصنع كل منها من نصف جلد بعير ، وتتسع لنحو ١٥٠ لتراً من الماء . وإن شح الماء في القيظ حصل عليه الجميع من بيت الشيخ .

الخبرا (الجمع : خَبَارِي) : هي المساحات المستوية ذات الأحجام المتنوعة في سهل واسع ، يجتمع فيها ماء المطر من الأراضي الأعلى . صحونهم : صحون هائلة الحجم لكل منها أذنان ، وغالباً ماوصل قطر أحدها إلى مترٍ ونصف ، يحضر فيها العشاء للضيوف الذين يدعوهم الشيخ أو ممثله للجلوس ، مسمياً كلاً منهم باسمه ، وفي سكون الليل تسمع نداءات الشيخ هذا من بعيد .

صِبْيانْ ثُوبَ المَالْ لاَتلْبِسُونَهْ   يِسْتَاهْله نَوَّافْ وْحِيفِي زِبُونَهْ
لْيَاجَا نَهَارَ الكوْنْ وْيَعْقِّد رْدُونَهْ

المعنى :

أيها الشباب ، لا تلبسوا ثوبَ المال [ثوب غالي الثمن] ، إن من يستأهله هو نواف ، فثوبه ليس جديداً ، وإذا جاء يوم الحرب فإنه يَعْقِد رُدْنَيْهِ خلف رقبته [أي يشمر عن ساعده ويشترك في القتال] .

الثوب : هو قميص الرجل الطويل المصنوع من الكتان الأبيض . «ثوب المال» : ثوب ذو تطريزات تجميلية حول الرقبة وعلى الصدر . يصل طول كُمَّيْ هذا الثوب ، في الغالب ، إلى متر ونصف ، وينتهيان بزاوية حادة . وأثناء القتال ، أو حين يعمل لابس هذا الثوب عملاً شديداً يُرْبَطُ الكمان معاً وُيلْقَيان خلف العنق .

«الزبون» : لباس يصنع من قماش ملون ويلبس فوق الثوب . إنّ نوافاً ، بصفته الأشجع ، ينبغي أيضاً أن يرتدي أحسن الملابس .

تَـبَشْري يـاهَـلَ الخَيْـلْ   نـواف شرى المَعْنَقِيَّهْ
سيقانْ مِشاعِـلْ دراريجْ   من تَحْتْ عـود الحَنِيَّهْ
قـال اركبَـي لاتخـافي   مـازالْ راسي عَـلَيَّـهْ

المعنى :

أبشروا يا أهل الخيل ، فنواف اشترى فرساً من سلالـة الخيـل (المَعْنَقِيَّةِ) . إن ساقَيْ مَشَاعِلَ كعموديْ دَوَرَانٍ تبدوان تحت عود الهودج المَحْني . لقد قال : اركبي ولاتخافي مادام رأسي على كتفَيَّ .

تمتدح النسوة والفتيات نوافاً وزوجه مشاعل ابنه سطام وتركية . المَعْنَقِيَّة : تعد من خير سلالات الخيل . وترمز بُشرى شراء فرس (معنقية) إلى زواج نواف بابنة المرحوم الأمير سطام ، أي من ذريةِ أحسنِ أسرة .

حين تدخل المرأة الهودج يجب أن تنحني فتُظهِرُ ساقيها بدون إرادتها . الدراريج (المفرد : دَرَّاجة) : أعمدة الدوران الملفوف عليها الخيط .

الحَنِيِّه : تدل على رحل من نوع (القِتَب) ذي الأعمدة الطويلة المحنيَّة . إن بإمكان «مشاعل» أن تبقى في هودجها هادئة البال ، فإن نوافا سَيَصُدُّ أي هجوم معادٍ يهدد النسوان أثناء الرحلة .

وَاشُــوفْ قْـبَــالَ الــشَّطّ بْـيــوتٍ تْـبَـنَّى
نَــوَّافْ يـامَـشْـكَـايْ نَـبْـغِـي وَطَـنَّـا

المعنى :

إني لأرى أمام الشط بيوتاً تُبنى . .

يانواف يامن أشكو إليه أمري[٩] . . إننا نريد وطننا . .

ثار عدد قليل من الكواكبه على الأمير النوري ، وتركوا الرولة ، ونزلوا مع «العَمَارات» على الفرات . فأرسلت نساؤهم وفتياتهم للأمير نواف يسألنه أن يتدخل من أجلهن لدى الأمير ، أبيه ، لكي يعدن إلى وطنهن .

كلمة «وطن» نادراً ما استعملت . فالتعبير السائد هو «دِيرة» .

تَسَمَّعُوا يا هَــلَ الخَيـلْ فــلان ، يْـطَوِّل شبـابـهْ
ماطُولْ حيٍّ على الخَيلْ الطَّرْشْ كِلٍّ يهـابِـهْ

المعنى :

اسمعوا يا أهل الخيل ، إن فلانا أطال الله شبابه ، مادام حياً ويركب الخيل ، فإن كلًّا يهاب الاقتراب من الإبل [أي إبل قومه لينهبها][١٠].

يانَوَّافْ نَادُوا زَينَكُمْ صَالْحَهْ تَحْطِيّ بَيْنَكُمْ
تِسْوَى سَلَايِـلْ خَيلِكُـمْ

المعنى :

يانواف ، أُدْعوا حسناءكَم صالحةً التي تسير بينكم بخطى لطيفة! إنها خير من خيلكم كلها .

صالحة ابنة للنوري وأخت لنواف .

يـاصالْحَهْ وِاسْمَعُوا يـاناسْ　　　واهَـيلِكْ نـافْلِينَ النّـاسْ
اَهَلْ هَدَّهْ وَاهَـلْ نُومـاسْ　　　وَاهَلْ لِعْبٍ عَلى الافْراسْ

المعنى :

ياصالحة ، واسمعوا أيها الناس ، أن أُهَيْلَكِ قد فاقوا الناس جميعاً ، فهم أهل شجاعة وأهل شهرة ، «وأهل لعب على الأفراس» .

والصَّفْـرَا بَـاوَّلَ الـغَـارِهْ　　　يـانَـواف شـاعَـتْ اذْكـارِهْ

المعنى :

حين الغارة تكون الصفراء (اسم فرس) هي الأولى . .

يانواف لقد سار ذكرها وشاع! . .

لاما احْلَى ذِرْعانِكْ صِيتَهْ　　　بـالـوُشَـامْ　مْـعَشْرِقـاتْ
مـا حَـلِىَ هَـدَّةْ اهَلْهَـا　　　والسّـيوف مْحَـنَّـيـاتْ
مـا حَـلِىَ ثَـورَةْ جِمَلْهَـا　　　بـالشّرايـا　مْـبَـيِّـنـاتْ

المعنى :

ما أجمل ذراعيك ياصيتهَ ، وقد زُرْكِشن بالوشم!

ما أجمل غارة أهلها ، وقد حنيت السيوف!

ما أجمل ثورة جملها ، وقد جُمِّلَ بالزينات!

صيته : ابنة للمرحوم الأمير سطام كانت متزوجةً الأمير النوري . الهدة : يقصد بها جلبة الرمي ، في الهجوم ، وصيحات الحرب ، وصهيل الخيل ، وأنين الجرحى . مُحَنَّيات : قد حُنِيِّن ، أى صُبِغْن بالحِناء ، والمقصود أنهن ملطخات بالدم فكأنهن (مُحَنَّيَاتٍ).

كانت صيته تمتطي جملاً أوْرَقَ قوياً، حين ترتحل القبيلة ، وكان رحلها «القِتَب» محلى ببطانياتٍ حُمرٍ منوعةٍ ، ابتيعت من الأسواق .

الاَشْقَحْ مـاحْلىَ هَـزْعَتِـهْ يـاصِيتَـهْ تِـرْتِبْ وَدْعَتِـهْ

المعنى :

ما أجمل مشية الجمل الأحمر[١١] . إنها صيته التي تخيط الوَدَعَ الصغار (أشكالاً على قَتَبِهِ) .

لقد حُلِّيَ الرحلُ الذي على البعير ، والعنانُ بودع صغارٍ بيضٍ على أشكالِ نجوم صغارٍ ، ومربعاتٍ وأشكالٍ أخرى . ومع مشية الحيوان المترنحة يهتز الرَّحْلُ أيضاً ويلمع الوَدَعُ لمعاناً غريباً .

الاشْقَـحْ وِانْ دِنِّي عَتَـبْ يَنْفي الـحْمِـيَري وَالـذّهَبْ

الجمل الأحمر إذا جيءَ به عَتَبَ عَلى ثَلاثِ أرْجُلٍ لَعَلَّهُ يُريد البطانيات الحمر ، والأهداب الذهبية .

حالما أَجْبَرَ العبيدُ الجَمَل «الأشْقَح» الذي تمتطيه «صيته» على البروك ، وعقلوا رجله اليسرى لِيُنْزِلوا القتب بسهولة ، نهض وبدأ يقفز على رجليه الثلاث لأنه لم يك يرغب في أن يُحرم من الغِطاء والأهداب المنسوجة مع خيوط ذهبية .

الاَوضَـحْ يَـزْعَـجَ البِـدِّي يـاصيتَـهْ مِن ضَنَـا جِـدِّي

المعنى :

الجمل الأبيض يمزّق الوسائد التى تُسْند القتب . .

ياصيته إنك من ذرية جدى .

اعتادت صيته أيضاً أن تركب جملاً أبيض خالص البياض . بِدي : هي الوسائد التي تسند القتب في الرحل ، والجمل المليء بالحيوية يدير رأسه إلى الوراء ويمزق الوسائد بأسنانه .

يَاصِيتَهْ بِنْتْ جِدَّينِ   جِدٍّ يِنْزِل السَّاقَهْ وْجِدٍّ يِنْطَحَ الخَيْلِ

المعنى :

ياصيته ، يامن هي بنةٌ «لِجَدَّيْن» : جَدٌّ ينزل الأماكن الأخطر ، وَجَدٌّ يواجه الخيل[١٢].

كانت أمّ صيته تركية ابنة شيخ الفِدعان . وكان أبو صيته سطام يختار المكان الذي تكون عشائره معرضةً فيه للخطر الأعظم ليكون منزلاً يعسكر فيه . مثل هذا المكان يقال له «ساقِهْ» وكان أبو زوجته بطلاً مشهوراً لايقف أمامه الغزاه .

غَـزالٍ دَشَّكُمْ مـاهـاب   يـابِنْتْ مْخَضِّـع الارْقَـابْ

المعنى :

غزال انطلق من بينكم غيرَ هيّاب ، يا ابنة مُقّطع الرقاب . . لم تك صيتة تخاف ، وإن استطاع العدو دخول الحي ، لقد ورثت عن أبيها مميزات شخصيته .

يـاصِيتَـهْ بِنْتِنَـا الـرَّزْنِـهْ   كِـثِـيرَ المَـالْ يَشْرِيهـا
قليلَ المالْ وَاحِزْنَهْ

المعنى :

ياصيته! ، يابنتنا الرزينة ، يشتريها كثير المال . . أما الفقير فإنه سيحزن كثيراً (لعدم قدرته على نيلها) .

كانت صيته بَديناً وهادئة الطبع . وحين كان النوري يرتعش فَرَقاً على حياته ، في بعض الأحيان ، كانت صيته ترقبه ليل نهار لتحول دون تسميمه أو اغتياله في بيته . مثل هذه المرأة لايقتنيها إلا الغني .

أَهَـلْ صِـيـتَـهْ يِحِـلُّونْ سُـكَـارَىَ مـايِـذِلُّـونْ
عـلى السـاقـاتْ يْتَيُّـونْ وَاهَـلْ صَـحْـنٍ يِحِطُّونْ

المعنى :

يَحِلُّ أهلُ صيتة [على الأعداء كما لو كانوا غنماً] لأنهم كالسكارى لايخيفهم شيء ! ولايبالون بأخطر البقاع ، وهم أهل صحون تملأ للطاعمين .

يتصرف المقاتلون في الهيجاء كما لو كانوا يذبحون غنماً فحسب (يحِلُّون).

الساقات : هي الأماكن المعرضة لهجوم العدو المباشر ، ولذلك فهي خطرة جداً . ولايهمل الشيخ ذو المكانة هذا الخطر فحسب ، بل يتعمد الذهاب إلى هذا النوع من الأمكنة ليجنب قومه الخطر ، وليدمر العدو بنفسه . ولهذا يُمدح أهل صيته لرباطة جأشهم عند البأس ، ولبسالتهم وكرمهم لأنهم يضعون الطعام في الصحن أمام ضيفهم .

يـاصِيتَـهْ مْحِزِمِكْ جِـبْرِي عَلَيـهْ مْنَ الـذَّهَبْ شِـبْرِ

المعنى :

ياصيته إن حزامك جِبْرِي(؟) عليه من الذهب ماسُمْكُهُ شِبْر .

تضع ، عادةً ، بناتُ الشيوخ الأقوياء وأزواجُهم فوق ثيابهن حزاماً من الصوف أو الحرير نسجت مع قماشه خيوط ذهبية أو فضية .

جَمَـلْ صِيتَهْ شَبَـا الـمَطْلاعْ جَعَـلْ مِـنْ تَبْغُضِهْ تِنْلاعْ
يِمُـوتْ وْلِيـدَها الرَّضَّـاعْ

المعنى :

جملُ صيتةَ تسلق التل ، لعلَّ من تبغضه تصاب بلوعة! فيموت وليدُها الصغير الرَّضَّاع .

شَبَا المَطْلاعْ ، تعني أن بعيراً يحمل هودجاً أنيقاً تسلق مرتفعاً ، فبرز الهودج في الأفق ،

وبات يُرى من بُعْدٍ . يؤمن البدو بأن النظرة الحاسدة الغاضبة قد تُلحق بالإنسان ضرراً قاتلاً ، ومن هنا دعى على المرأة التي تنظر مثل تلك النظرة إلى بعير صيتة بأن يعاقبها الله . تِنْلاع : تعني أن تَنْحَفَ المرأة نحافةً مفرطة ، وتفقد منظرها الصحيح ، **وْلِيد** : طفل ذكر صغيرٌ ، تؤثره الأم على الأنثى ، لأنه يُعزِّزُ ، وسيعزز مستقبلاً المكانة التي تتمتع بها الأم في البيت . وبفقده تفقد ، في الغالب ، سعادتها مدى الحياة ، حيث يطلّقها حينئذ زوجُها ، وقد تضطر للانتظار الطويل قبل أن تجد رجلاً آخر ، بسبب الخوف من أن روحاً شريرةً تتبعها .

يـامُـهْـرَهْ قِـيـدَتْ مِـنْ بِـيـنْ نَـزْلِـينِ
قَـوَّادَهَـا خـالـدْ لَايـابَـعَـدْ عَـيـنِي

المعنى :

يامهرةً قِيدتْ . . من بين قَطِينين . .

قائدها خالد . . أفديه بنفسي . .

المقصود بالمهرة هنا زوج خالد بن المرحوم الأمير سطام الشابةُ ، وكان قومها مقيمين يوم الزفاف ، غير بعيد .

يـابَـكْـرةٍ حُـرَّهْ يـامَـشـيْـهـا زَفْـزَافْ
رَكَّـابَـهـا مَمْـدُوحْ يَـقْـلُطْ وَلَا يَخَـافْ
تِـسِـيلْ سِـيلِـيلَ المَـا تَخْـطُمْ عـلى الاسْـلافْ
يَـرْمِـي وَلايِخْـطِي يَـقْـعُـدْ ولايِـنْـشـافْ

المعنى :

يالَلْبَكْرَةِ الحرة . . ماأسرع سيرها! . .

راكبها ممدوح . . يتقدم دون خوف . .

تسيح كما يسيح الماء . . فتتجاوز المقاتلين المتقدمين . .

إنه [أي ممدوح] يرمي فلا يخطيء . . إذ يقعد [متهيأً للرمي] فلا يُرى .

كان ممدوحٌ أصغرَ أبناءِ الأمير سطام وأجرأهم . لم يكن أيُّ عدو يستطيع الصمود أمامه في الهيجاء ، بل يفر فيضربه ممدوح من الخلف فيسقط على عنق مطيته .

يَقْلُط : تعني إما «ينحني» أو «يدفع رَحْلاً أو راكباً إلى الأمام» . سِليلَ الماء : طوفان هائل ينحدر مندفعاً فجأة ثم يختفي كما ظهر . هنالك أودية ، أو على الأصح ، قنوات ، يصل طولها إلى مائتي كيلومتر وتظل جافة سنين عديدة . فإذا نزل مطر كثير ، واستمر طويلاً ، فإن الماء يندفع بسرعة البرق عبر القناة (الشِّعْب) مفاجئاً البدو الذين صادف أنهم يحلون في جانبها المنخفض ، ثم يختفي كما جاء . مثل هذا الطوفان ليس (سَيْلاً) بل (سَلِيلاً) . وناقة ممدوح تظهر غير متوقعة مثل هذا (السِّليل) كما تختفي مسرعة مثل اختفائه لمقدرتها على الوَخِيدِ السريع .

السَّلفَ : جماعة من المقاتلين يتقدمون القبيلة الراحلة . وناقة ممدوح دائماً تسبق (السَّلفَ) .

يَقْعُد : تعني أن ممدوحاً ، الذي ما فتىءَ صغيراً ، ينحني مع كل طلقة لكي يتقن «التهديف» . ولذلك لايرى ، خلف رقبة بعيره . لقد كان عمره عام ١٩٠٩ ثماني عشرة سنة ، لا أكثر .

● تربية الأطفال ●

يظل الصبيان والبنات معاً مع أمهم حتى السابعة ، ويذهبون إلى أبيهم للتحدث معه بين الحين والحين فحسب . فإن لم يكن أبوهم قد طلق أمهم فإنهم يقيمون في قسم النساء ، ويتولون أداء الأعمال الخفيفة .

وإن اقترفوا مايوجب العقاب ضربوا بِعَصاً ، ولايضربهم أبوهم أو أمهم وحسب بل والعبيد ذكوراً وإناثاً . ويرى الرولة أن أصل العصا من الجنة (**العصا اِظْهَرَتْ مْن الجَنَّة**)،وأنها أيضاً تقود الإنسان إليها .

ويعتني الصبيان الأسنُّ بالأَمْهارِ فيرعونها ويسقونها ويركبونها حين ينتقلون من مكان إلى آخر، كما يأتون بالحطب إلى قسم الرجال وبالماء للضيوف . . إلخ ، ويجلسون القرفصاء مع الرجال

حول النار مصغين للأحاديث ، كما يتعلمون تلاوة القصائد والأغاني ، فيتعرفون بهذا على الشؤون العامة كافة .

ويتعلم الصبيان الرماية قبل بلوغهم الرابعة عشرة ، كما يشتركون في غارة واحدة على الأقل قبل أن يبلغوا السادسة عشرة ، وفي هذه المرحلة لايفكر الأب بمعاقبة ابنه إذا عصاه بعصاً فحسب بل يستخدم سيفاً أو خنجراً بدلاً منه . إنه بجرح أبنائه أو طعنهم لايعاقبهم فقط بل يعوّدهم على الصلابة والقوة لمستقبل أيامهم .

إن الابن الذي لايطيع أباه ، قد اقترف في رأي البدو جريمة العصيان التي لاعقاب لها كالسيف (**السَّيفُ لِمَنْ عَصَا**) .

● ألعاب الصبيان ●

لايبقى الأولاد دون عمل أبداً . فإن لم يشتغلوا بمساعدة أبويهم فإنهم يلعبون ، وبعض ألعابهم خطرة ، وكلها ، على أية حال ، فيها تصليبٌ لعودهم ، وإذكاء لملكاتهم .

الرَّمْحَة : في هذه اللعبة ، يَصُفُّ الصِّبْيَةُ صَفَّيْن ، يمسك الصافُّون بكل صف بعضُهم أيديَ بعض ، ويقفون في مكانهم ، ثم يتقدمون نحو الصف الآخر ، ويرفسون أندادهم إلى أن يتدحرج جزء كامل من الصف (يْتَرَامِحُون). ولا تنتهي اللعبة حتى تغدو بطون كثيرين منهم سوداً وزرقاً ، لكنهم يظلون واقفين طالما استطاعوا تحمل الألم .

الشَّارَهْ : وهي لعبة بمكان من الخطورة عظيم ، يأتي الصبيان بمحاذِفِهِمْ (مِقْلاع ، والجمع : مَقَالِيْع)[١٣]، ويجمع كل منهم عدداً من الحجارة الصغيرة ، ثم ينفصلون إلى جماعتين متعاديتين ، ويعلنون الحرب فيما بينهم ، ثم يقذفون الحجارة من محاذِفِهِمْ (يِتْشارُون). ويسيل الدم دائماً . وغالباً ماخسر صبيٌّ عيناً ، أو يُشَجُّ رأسه ، أو يكسر عظم ذراعه أو ساقه ، بل إنه قد يسقط ميتاً ، ومع ذلك لايمنع الآباء أبناءهم أبداً من اللعبة . وإن مات صبيٌّ فعلى أهل اللاعب الذي قتله دفع الدية ، ونصفها عن الجروح الخطيرة الأخرى ، فإن لم تمكن معرفة الجاني وجب أن يدفع أهل الصبيان المشاركين في اللعبة جميعاً تعويضاً من هذا النوع يسمى «المِدَّهْ الغْشِيَّهْ» .

الـمَعْكَاله: لعبة أخرى ، ليست بخطورة سابقتها ، يخلع الصبي غترته ، ويعقد عقدة في وسطها ، واضعاً فيها حجراً ، ويقف لدى الباب (باب الميدان : المِيدْ) ثم يرمي الغترة إلى رفاقه المنتظرين على بعد خمسين خطوة ، ومن يتمكن من الإمساك بها يضرب الآخرين وهم يعدون نحو الباب ، ثم يعود إلى مكانه ، ويلقي الغترة بين الأولاد الذين يصيحون به : أعط الغترة من اعطاكها «عَطْها مِنْ عطاكِيها»، وتُسْتَأْنَفُ اللعبة من جديد .

وهنا أيضاً ، قد يعود غلام إلى بيته وفي رأسه شجة متورمة أو في جسمه جرح يسيل منه الدم .

مُذْمَحْ سارَهْ : يلعب الصبيان ليلاً ، لعبة تسمى «مُذمَحْ سارَه» فيأخذون عوداً حادَّ الطرفين «شُظاظ» من ذلك الضرب المستخدم لربط رُواقِ البيتِ الخلفيِّ لِسَقْفِهِ . يقف أحد الصبيان لدى باب الميدان «الميد» ويُلقي العود لرفاقه الذين يقفون على بعد نحو عشرين خطوةً منه . فيهتف الصبي الذى يلتقفه : (مُذْمَحْ سارَهْ ، مُذْمَحْ مِعِي)، وينطلق في الحال نحو الباب ، فيرمي الآخرون بأنفسهم عليه محاولين أَخْذَ العُودِ وصائحين : أنا ذو القوة ، سأحطمك! «ابا العْرِيَـك والعارِكْ». أما الغلام المهاجَمُ فيذود المهاجِمين بأقوى مايستطيع ، طاعناً إياهم بالعُود ورافساً وعاضاً آملاً أن يصل إلى الباب والعُودُ معه . ومعظم الجروح الناتجة من هذه اللعبة ، ترى آثارها ، بطبيعة الحال ، على ملابس اللاعبين .

الحاجِيهْ : وعند إرادة لعب «الحاجِية» تحفر حفرة في بقعة مستوية من الأرض ، وتحفر وسطها حفرة أصغر منها وأعمق . وتوضع على جانب الحفرة الكبيرة حصاة مدورة «حاجية»، ثم ترمى من الباب حصاة مشابهة «سِيك» لكنها أكبر ، نحو الحصاة الأولى لإسقاطها في الحفرة الكبيرة حيث لابد أن تتدحرج في الحفرة الصغيرة . وحين يؤدي الأولاد جميعاً (أدوارهم)، يمتطي الصِّبية الذين نجحوا في وضع الحصاة في موضعها رفاقَهُم ذوي الحظ الأقل حُسْناً ، والذين يجب أن يحملوهم من الحفرة حتى الباب . وغنيٌّ عن الذكر أن هؤلاء الراكبين نادراً ماغاب عنهم أن يَنْخَسُوا جوانبَ أفراسِهِمْ لقسرها على الإسراع !

خَيلْ وْخَيلْ : وفي هذه اللعبة تُختار الأفراس والراكبون بالقرعة ، ثم يستوي الراكبون على ظهور «الخيل» التي تحملهم حتى الهدف المحدد ، وهناك تصيح «الخيل» : (الخَيلْ أَقْلابْ)

وتنقلب على جانبٍ واحدٍ لتتخذ مقاعدها على ظهور راكبيها .

الطَّقَه : وفي هذه اللعبة يتسلح كل صبي بأحدِ أعوادِ الخيمةِ الكبيرة ، ثم يضع صبي يقع الاختيار عليه بالقرعة ، عُوداً صغيراً مدببَ الطَّرَفَيْنْ «شظاظ» على أعلى حجر قريب ، ويضربه بعودِهِ الكبير ، لكي يجعله يطير في الهواء قليلاً ، ثم يَصُكُّه وهو في الهواء صَكَّةً عنيفةً تقذف به نحو اللاعبينَ الآخرين الذين ينتظرون على بعد نحو ثلاثين خطوة أو أربعين ، فيحاول كل منهم أن يُصَدَّ العُودَ الصغيرَ الحادَّ المنطلقَ بعوده ليعيده من حيث أتى . وطالما لم يفلح أحدٌ في ذلك ، فإن العود يعاد للصبيِّ الأول الذي يستمر في اللعب إلى أن يتمكن أحد رفاقه أخيراً من إصابته فيحلُّ محلَّه .

وحين يحاول اللاعب صَدَّ «الشّظاظْ» ، غالباً ماضرب «الشظاظ» رَأْسَهُ أو كَتِفَيْه مما يَنْتج عنه آثارٌ لايصعب تصورها .

الدِّهْدُوَه : وفي هذه اللعبة تتقطع غُتْرٌ كثيرة مِزَقاً إذ يُدَحرِجُ صبيٌّ حجراً كبيراً من أعلى مكانٍ منحدرٍ قليلاً ، بينما يحاول الآخرون إيقافه «عَكَسْه» بغُتَرِهِم ، ولَمْ يُفلح في ذلك الحقُّ في أن يدحرج الحجر «يْدَهْدِيه» .

عِقَى عَقَبْ : وهي لعبة يعدو فيها الأولاد نحو الهدف ، الذي يقع على بعد مائة خطوة تقريباً . ومَنْ يَصِلُ أَوَّلاً يهتف : (عِقَى عَقَبْ) وهو أمرٌ للآخرين بأن ينحرفوا ويعودوا نحو نقطة الانطلاق عَدْواً . وأولُ صبي يصلها يصيح الآن بالكلمات نفسها : (عِقَى عَقَبْ) ويطير مع الآخرين نحو الهدف . ويكرر ذلك حتى يتعب الجميع ، وأخيراً يهتف الذي يصل الهدف أولاً : (كُرْكُبْ خَشَبْ) أي : كَوْمْ خَشَبْ ، ويسقط على الأرض ، ويحذو الآخرون حذوه ، فيرقدون دون حراك برهة ، لكنهم بعد ذلك يبدأون في رفسِ كلِّ ماحولهم وضربِهِ بغضِّ النظر عمن يضربون!

● أهازيج تغنيها البنات ●

ليس للبناتِ ألعابٌ كهذه . لذلك فهن يؤلفن من وقت لآخر في الليل مجموعتين (جَوْقَتَيْنْ أو كورَسَيْنْ) ، ويغنين بالتناوب (يِسْمَرَنْ) أهازيج منوعة (سُمِيرْ).

تَـفَـوَّلُـوا بِـالـفَـضَـا يَـا الَّـلى طَـلَبْ فَـالي
فَـالي رَشِـيـدٍ والـرِّشِـدْ طَـيِّـبَ الـفَـالِ

المعنى :

تفاءلوا بأن تجلسوا في مكان فسيح ، يامن طلب فألي ، إن فألي طيبٌ ، والطَّيِّب ذو الفأل الحسن .

حين توشك النساء والصبايا ، على ابتداء (سُمَّيرهِنّ) يجتمع الرجال والشبان غير بعيد . وقبل الغارة أو أيِّ حدثٍ ذي شأن يهتم الرجل بأول كلمة تتلفظ بها المرأة أو الفتاة التي يحبُّها ويتفاؤلون بتلك الكلمة ، أو يتشاءمون ، ويحاولون أن يخمِّنوا منها ما إذا كان سينجح أمْرُهم أوْ لا . ولمعرفة الفتيات بذلك فإنهن يبدأن بالأهزوجة المذكورة أعلاه .

الفضا ، أي السهل الفسيح الذي لايمكن أن يُكْمَنَ للبدوي فيه ، فأل حسن ، في نظره . وخيرٌ من أي فألٍ ، على أية حالٍ ، الحظُّ نفسُه أو النتيجة الناجحة .

انْحُودِرُوا لِـلسُّمَّـيْر وَالـزَّمِـلْ بـالمِسْرَاحْ
مِـنْ هُـو يِهِـدَّ الـطِّيْرْ مَـعْـلُوقْ قَـلِيـبَهْ راحْ
يِـلْفِـي عَـلى مَـرْتِـهْ يـانِجْـمِـةَ المِـصْـبـاحْ
إرْخِـي طْـرَيـفَ السَّـيْر قِـيـفِـي عـلى المِـبْـطاحْ

المعنى :

اجتمعوا (لِلسُّمَّير)، والرواحل في المرعى . .

والذي يدرب الصقر ، لقد انقطع شريان قلبه . .

وسَيَفِدُ على زوجته ، يالها من نجمة صباح! . .

أرْخِي طَرَفَ السَّيْرِ (الحزام)، وقفي على عمود الرحل . .

تدعو الفتياتُ والنسوةُ الجميعَ لحفلِهنّ (السُّمَّير) لأنه ليس ضرورياً الاستيقاظ مبكراً في

صباح اليوم التالي ، لأن رواحل الشيخ لم يعدن بعد من المرعى . فيسمعن من يدرب صقره فيرثين له ، لأن الصقر ذهب بعيداً وعاد إلى زوجه . وقبل أن يرحلن يدعون أجمل امرأة في المعسكر بأن تقف في رحلها ، وتضيء ماحولها إضاءة نجمة الصباح .

تستعمل كلمة (انْحُودْرُوا) أي (اجتمعوا أسفل) أو (انزلوا معاً) لأن (السمير) يعقد دائماً في مكان خفيض يتوفر فيه (الذَّرَى) عن الريح .

أَرْخِي طْرِيفَ السَّير : أرخي طرف حِزامِكِ (بريمك). تلبس كل امرأة حزاماً ذا سُيُورٍ جلديةٍ رقيقةٍ على جسدها العاري ، وعند دخولها الهودج ترخي هذا الحزام لكيلا يضايقها خلال الرحلة .

قيفي : قِفي .

يــارَبِّ يــاخــالْـقَ الّليــلْ	هــاتَ المِطَرْ من سحــابِهْ
مــازال نوافْ عــلى الخيــلْ	والمــال كــلٍّ يهــابِهْ
يستــاهِـل الــوَرِدْ والهَيــلْ	والنَّــذِلْ يَقْمَـحْ شِبــابِهْ

المعنى :

ياربي ياخالق الليل أنْزِلِ المَطَر من سحابه . .

مادام نواف (مستمراً في الغارة) على الخيل فلا يجرؤ أحدٌ على مساسِ مالِ القبيلة[١٤].

انه لخليق بأن يُهْدَى إليه الوَرْدُ وحَبُّ الهال (الهيل)! أما الرجُّلُ اُلنَّذْلُ فَلْيَكْبحْ جِماحَ شجاعته الفَتِيَّةِ .

الورد : تعني رائحة الورود ، بالاضافة إلى الوردة نفسها ، وحب النساء ، الهيل : (حب الهال) يضاف للقهوة ، والتي تعد على هذا النحو لاتصب لسوى الأبطال .

النذل : تعني هنا الشيوخ الأكبر سناً وهم الأكثر حذراً ، الذين لايسمحون ، وعلى رأسهم الأمير النوري ، لنواف وصحابِهِ الشبان ، أن يوالوا الغارات حتى على القبائل المعادية ، لأنهم يخشون طلب الثأر .

يـارَبِّ يـامْـعَـوِّدْ تْـعَـوِّدْ عـلى هِـلْنـا
نَـبـنِي بُـيـوتَ الـعِـزّ نَـنْـزِلْ مـنـازِلْـنـا
نَـرْحَـلْ عن هـالـدِّيـرهْ وْعَـنْ وَسْـطَـهـا جِـلْنـا
يِـسْـلَـمْ أَبـو نَـوّاف يَـرْحَـلْ ويِـنـزِّلْـنـا

<u>المعنى</u> :

يارِبي يامعيد ، أعدنا إلى أهلنا . .

نبني . . . .

نرحل عن هذه الأرض ، ونذهب عن وسطها . .

فَلْيسلَمْ أبو نواف يُرَحّلنا من مكانٍ ويُنْزِلنا مكاناً آخر . .

إن لم تَفِ بحاجة الرولة أراضيهم ، بينما يتوفر الخصب (الربيع) في الأراضي المتنازَع عليها ، فإنهم ، عادةً ، يمضون إلى المستوطنات التابعة لهم في البر الداخلي ، ويفرغون إمداداتِهم ورحالَهم وبيوتَ شَعْرِهم الكبيرة ، وَيَدَعُون النساء والأطفال والشيوخ هناك ، وينتقلون بقطعانهم إلى تلك الأراضي لمدة شهر من الرعي ، على الأقل ، وهناك يسكنون بيوتَ شَعْرٍ صغيرةً ، وبعضهم في الفضاء ، ويطبخون طعامهم بأنفسهم ، أو يكلون إلى امرأة واحدة أو جارية الطبخَ لعددٍ من البيوت . . ودائماً يقيمون بيوتَهم بين قطعانهم ، مستعدين للدفاع عنها ليلاً ونهاراً . وسرعان ماتضيق النسوة والصبايا اللواتي يرافقنهم ذَرْعاً بهذا النمط الحياتي . كما عُبِّر عنه في أغنيتنا .

<u>بيوت العز</u> : هي البيوت الكاملة التي تتطلبها مكانة مالكيها الاجتماعية . جالَوْا : «اختفوا من هذه المنطقة» إنْجالَ الغَيم: «اختفى الغيم ، تلاشى».

يـارَبِّ يـامـالي عَـطْنِي فَضَــا بـالي
فـوقْ اوضـحٍ عـالي مـع وسط جِـيّـاني
وْجُـوزٍ عـلى بـالي وزْمَـيِّـم حَـمْـراني

المعنى :

يارب يامن ليس لي سواه ، هب لي راحة بالي . .

(يَسِّرْ لي) أن أركب على جملٍ أبيض عالي الظهر ، وسط أهلي ،

وزوجاً موافقاً لهواي ، وزِماماً[١٥] ذهبيًا صغيراً .

فضا بالي : الذهن الصافي ، والضمير الطيب ، والروح السليمة غير المقهورة .

تتمنى كل صَبِيَّةٍ أو امرأةٍ أن تركب عند الظعن في هودج مزركش على جملٍ ناصع البياض . وتفخر كلٌّ من القبيلة والأسرة بمثل هذا الجمل ، وتكون الزينات التي تُعَلَّقُ عليه واضحةً وضوحاً تاماً .

وتكون الفتاة وسط أهلها آمنةً تماماً .

ولايُعَلَّق «الزِّمَامَ» في الأنف في الحاضر عدا نساءٍ روِيلياتٍ قليلات .

يـاراكـب هُمَـيلَعْ	راعَيـهْ مايُـومِي عصاهْ
يـامِنْ ذَكَـرْ صْـوَيحْبِي	يـادايْـرهْ يـامِـنْ لِقـاهْ
اِرْعِـهْ مع ذْوَيـدٍ عَـزِيبْ	ومْـزَرْفِـلٍ يَـمَّ الفَـلاه
وَلا لِـقَيـت الا الخَـلا	والـذيبْ جـلاني عْـواهْ

المعنى :

أيا راكباً بعيراً وديعاً ، لايحتاج راكبه حتى للإيماء بعصاه[١٦]،

من يذكر لي أنه رأي حبيبي (الذي فقدته) في أي مكان؟

من بحث عنه؟ من رآه؟

إنه مع ذودٍ من الإبل قليلٍ قد عَزَب في المرعى ، وإنى منطلق إليه في الفلاة .

لكني لم أُلْفِ سوى الخلاءِ الذي أبعدني عنه عواءُ الذئب .

لم يجد العاشق حبيبته في المنزل الجديد ، فشرع يسأل ويبحث عنها . لقد اعتادت أن تركب

في هودج على جملٍ وديعٍ (هِمَيلَع) ذي هيكلٍ قصيرٍ ، وتشير لحبيبها بالعصا التي تسوق بها مطيّتها .

الذَّوَيد : الذَّودُ الصغيرُ من الإبل ، يكون للعائلة الواحدة ، وإذا خرج الابن ، الذي يهتم عادة بالقطيع ، في غارةٍ انتقل الاهتمام به للابنة .

العَزِيب : هو المرعى الذي يكون على مسافةٍ من المنزل بحيث تقضي الإبل ثلاثَ ليالٍ أو أربعاً ، على الأقل ، بعيداً ، ولايردن الماء أو يأتين للحي حتى اليوم الخامس .

مْزَرْفَلٍ : مثل (ذومل) تشير إلى خطوة البعير العجلى .

الفَلاه : المرعى ذو العشبِ الطيبِ والأشجارِ الدائمةِ الاخضرارِ .

شِدُّوا من الزِّمِلْ عَلْيَان شَيل اللَّهَدْ مايْدَانِيهْ
والحِكُمْ حُكْم ابْن شعلان مَقْـرُودْ[١٧] ياالـلي تْراجِيهْ

المعنى :

ضعوا الرَّحْلَ على البعيرِ المسمى «عَلْيان» من بين الرواحل . .

انه لايُحِبُّ مُطلقاً الحِمْلَ الثَّقيل . .

والحكم حكم ابن شعلان يَالَكَ من سيىءِ حَظٍّ يامن تعارضه !

الزِّمل : تطلق هذه الكلمة على الإبل التي تحمل الأثقال ، وهي دائماً جـِمَالٌ تَحْمِلُ بيوتَ الشَّعْر والمُؤَنَ وعِدَّةَ الشيخِ كلَّها . وفي نخوة الرولة تدعى القطعان كلها «عَلْيا» التي عُنيت الإبل بها هنا في كلمة (عَلْيان).

اللَّهَد (الجمع اللّهود) : هي الجراح الصلبة أو القروح على ظهر الجمل أو جانبيه التي يسببها الحِمْلُ الثقيلُ أو الموزَّعُ توزيعاً غير متساوٍ ، أو الرحل غير المستقيم سواء كان رَحْلَ جملٍ «حْدَاجَه» ، أو ركوبٍ «شْدَاد» فإن اختفت تلك البقع الصلبة فَبِها ونِعْمَتْ ، وإن صارت قروحاً وانفتحت فإن النتيجة هي الجراح المتقيحة (دُبَره ، الجمع : دُبَر).

الإبل التي يملكها الرولة لاتطيق الأثقال التي تجرح ظهورها . وأسرة ابن شعلان الحاكمة لن تطيق المعارضة .

يـارْبْـعَـةٍ	بِـنْـيَـتْ	شِـدَّتْ عَـراويـها
وَرَوَّحَـتْ	زِرْفـاتْ	يِـرْجَـى العَـشا بِيـها
تِجُـوفَـهـا	مْـنـيـفَـهْ	يِـفْـرَحْ بِطاريـها

المعنى :

يالها من (رَبْعَةٍ) بُنيت . . . لقد شُدَّت عُراها . .

وقد راحت [الأمهار] زَرَافات . . وكل فارس يرجو العشاء فيها [أي في الربعة] . .

وتُعِدُّ مُنيفة العَشاء . . تلك المرأة التي يفرح الشبان اذا ذكروها .

الرَّبْعَة : قسم الرجال في بيت الشيخ ، كما تطلق أيضاً على بيت الشَّعْر كله .

العراوي : العُرَى ، أو عُقَدُ حبال بَيْتِ الشَّعَر المثنية التي يمكن توسيعها أو تضييقها حسب قوة الريح .

رَوَّحتْ زِرْفات : العبيد والخدم والشبان الآخرون الذين يخرجون ، في المساء ، على ظهور الخيل ليحموا القطعان العائدة من أي هجوم ممكن . وكلمة «روَّح» تحمل دائماً دلالةً على السكن الليلي .

يـاخَـيِّـي يـاعَـزْوَةٍ لِيٍّ	طَـريحَـكُـمْ	لايْـضَـامْ
وسـلاحَـكُـمْ مُـسْـتَـجِـلٍ	يَقْصُمْ صَليب	العـظَامْ
عَـدُوُكُـمْ مُـسْـتَـمِـلٍ	عَيَّتْ عُـيـونَـهْ	تـنـامْ

المعنى :

ياأُخَيَّ ، يامن هو مثيلي في النسب، . . إنَّ من تطرحونه عن حصانه لايضام . .

وسلاحُكُمَ مشهور ، يَكْسِرُ القويَّ من العظام[١٨]!

وعَدُوُّكُمْ خائفٌ ، أبَت عيناه أن تغمض!

تُثني الصَّبيَّة على بسالة حبيبها ، الذي هو من أقاربها الأدنَيْن . حين تقال كلمتا «عزوةٍ لي» بسرعة فكأنها كلمتا «عزوة اللي»، لأن الصوت «إن» يضاعف المقطع التالي . «لِي عِزْوَة» تشير إلى القرابة من جهة الأب ـ «مْنَ اين يِعْزَى فلان؟» تعني : «إلى أين ينسب فلان؟ من أي قبيلة هو؟» يعزى من آل فلان «وينسب لآل فلان».

الطريح : تعني المقاتل المتدحرج على الأرض بعد أن أُلْقِيَ من على سرجه .

يـاخَـيِّـي يـامـالي وَرَاكْ لـي شِـنْـيـانْ
يـاخيِّي اَبْـغي امارِي بلَمَّـة الـعُـرْبـانْ
فـوقْ اشْـقَـحٍ عـالى نِـوَفْ عـلى الـقِـعْـدانْ
أُمّـهْ غـتَـيـبِـيَّـهْ وابـوه مـن الـعَـذْوانْ
وَالايْـفِـهْ هَـجْـمَـهْ سـودٍ كـما الـغِـرْبـانْ

المعنى :

يا أُخَيَّ ، يامن يساوي كل ما أملك ، إن أُمَّك وأُخْتَكَ كلتيهما تمقتانني(١٩).

يا أُخَيَّ إني أود أن أظهر شجاعتي حين يلتئم شمل القوم . .

على جمل أبيض عالي الظهر ، ينوف حسنه وقوته على حسن الجمال كلها وقوتها .

أمه عتيبية ، وأبوه من العَذْوان .

وأُلَّافُهُ هَجْمَةٌ (قطعة) من النوق ، سود الألوان كالغربان . .

تتمنى هذه الصبية أن تصحب عربها في أشد القتال ضراوةً ، أملاً في أن تكسب ودَّ أُمِّ حبيبها وأخواتِهِ .

وراك : «وراءك» تشير هنا إلى الأقارب الإناث . يجلس أعضاء الأسرة الذكور في الجزء المخصص لهم من بيت الشَّعْر وظهورهم إلى الحاجز الذي يفصلهم عن قسم النسوة . وأي شخص لديه شأن مع الرجال يقعد مواجهاً لهم ، وإن أراد ذكر أعضاء الأسرة الإناث قال بإيجاز : «وراءك . وراءك».



لَـمَّـة العُرْبَانْ : تعني «العرب سيجتمعون لِصَدِّ هجومٍ معادٍ» .

تقطن قبيلة عتيبة في شرقي المدينة ومكة والعَدْوان إلى الجنوب الشرقي منهم .

ولون الإبل السائد في نجد هو الأسود «الأملح» .

يـارَبِّ تـساعِـفْـني عـلى كِـلّ مـا أريـدْ
فـوق اوضحٍ عـالي بْـزَيـن الـمَـعَـالـيِـقْ
وغلَيـمٍ يَـشْـنِي لـيا يَـبْـسَت الـرِّيقْ
صُـفْـرٍ اشـحُـويِـيَّـةْ بْـقَـرْمَ الاوالـيِـدْ

المعنى :

ياربي أعِنِّي على تحقيق كل ما أريد . .

[أود أن أجلس] على جملٍ أحمرِ اللون عالي السنام ، في هودج مزركش . . .

(ومعي) شاب يحميني ، حين يجف الريق . .

شاب بطل ، على فرس صفراءَ أصيلٍ ذاتِ ذيلٍ طويل . .

زين المعاليق : رحل «قتب» قد زُرْكِش بزيناتٍ كثيرة ، ووضع على جمل أبيض عالي الظهر .

غلام ، تعني رجلاً شاباً ولكن باسلاً . يجف الريق من الخوف حين يهجم العدو على القبيلة الظاعنة ، ويحاول سلب الحسان من كل من الإبل والهوادج المزركشة . إنها ساعتئذ تحتاج مدافعاً شجاعاً .

يـاسَـيا رَبِّـنـا بْـذرَاك نِـدِّرِجْ
نـطلبك طـولـة الـ عـمـر مـانِـفْـتِـرِقْ

المعنى :

ياسَيَاءَ رَبِّنا(٢٠). إننا نلوذ بحماك . .

(ياربنا) نطلبك ألا نفترق طول العمر . .

لن تفارق الحبيبة حبيبها.

رِيـدٍ بـغـى رِيـدٍ سُـحْـبٍ دَرِجْ مـاهـا
يِـلْفـى عـلى شَـوقِـهْ واحُـلُو لامـاهـا
يِـعْـجِـبِـه بِـالظِّلْمَا مْـلاعَـجْ ثَـنَـايـاهـا

المعنى :

المحب الذى يشتاق للحبيب ، كالسحب التي يهطل ماؤها . .

وحين يأتي إلى حبيبته ، ذات شفاه ما أحلاها . .

يعجبه في الظلام تلألؤ ثناياها . .

يـامرحَبَـا يـامَـرْحَبَـا بِـطْويَـرِشْ القِبْلِهْ لِفَى
وليا لِفَى جانا الحَيـا

المعنى :

يامرحبا يامرحبا ، بالمسافر نحو القبلة (الجنوب) الذي عاد) وإذا عاد جاءنا المطر .

طويرق القبلة[٢١]: ريح الجنوب ، التى يتبعها عادة المطر .

يـاطـارِش الـقِـبْـلِهْ عَـيَّـنْـت حِـيَّـانِي؟
والـلي ورا بُـصْـرَى والـلي بْحُـورَانِ؟

المعنى :

أيها المسافر القادم من القبلة (الجنوب) أرأيت أهلي ، ومن وراءَ بُصرى ، ومن بِحَوْرَانَ؟ .

ترجى ريح الجنوب أن تأتي بالمطر أيضاً إلى المناطق الواقعة إلى الشمال الغربي من بصرى ، وكل المناطق التي حول حوران لتجد قطعان أهل الفتاة منتجعاً حين ينزلون هناك .

● التعليقات ●

(*) هذا فصل آخر من كتاب (أخلاق عرب الرولة وعاداتهم) الذي يقوم الكاتب بترجمة قسم منه . وقد نشرت (الدارة) فصلين آخرين منه في عدديها الثاني من السنة العاشرة الصادر في المحرم سنة ١٤٠٥ على الصفحات : ١٣٠ ــ ١٥٢ ، والأول من السنة الحادية عشرة الصادر في شوال من السنة نفسها على الصفحات : ٩٥ ــ ١٢٢ .

(١) في الأصل : آل أجيضر .

(٢) هكذا في الأصل ، ولعل الصواب «عَيْل» (الجمع : عيال) كما في كثير من اللهجات الأخرى .

(٣) في الأصل : يتغايله Jetaraleh ، وهو تحريف .

(٤) هذه ترجمة تفسير المؤلف لمعنى الأبيات ، ولايبدو أنها تلتزم بمعنى البيتين .

(٥) هذا تعريب تفسير المؤلف لكلمة (كِزّ) وهو معنى غير معناها المعروف لدى مختلف القبائل الأخرى ، وهو : أرسِلْ أمرٌ من كزّ ، يكِزّ : أرسَلَ ، يُرْسِل .

(٦) هكذا ورد الرجز باختلاف الروي .

(٧) ترجمة معنى صدر البيت الثاني حسب ترجمة المؤلف : فلاسمع بأخبارهم وأنهم قطنوا ليقيموا .

(٨) المؤلف : «. . . فإني (في مكانِك) عليّ ألا أبالي إن غَضِبْن» .

(٩) المؤلف : نواف ، ياطارد الحزن .

(١٠) ترجم المؤلف معنى عجز البيت الثاني ماترجمته هكذا : «فأي قطيع سيخافه» ونرى أنه بعيد عن المعنى المراد .

(١١) ترجم المؤلف «الأشقح» : الرمادي ، والمعروف في اللهجات الأخرى أنه «الأحمر المشرب ببياض» . ويستبعد أن يكون عند الرولة هو الرمادي .

(١٢) «بينما كان الآخر يرمي الفرسان برعبه» هذه ترجمة شرح المؤلف للعبارة الأخيرة ، وقد ابتعد نوعاً ما عن المعنى وإن كان المضمون واحداً .

(١٣) عاذفهم ، جمع مِخْذَف ، وهو في العاميه «مِقْلاع» أيضاً ، وهو مؤلف من خيطين يتصلان برقعة صوفية بحجم اليد المبسوطة ، يوضع فيها حجر ، ثم يديرها الرامي عالياً ، ويطلق أحد الخيطين فيقذف الحجر . ويستخدم عادة في طرد العصافير أو الجراد عن مزارع الحبوب ، ويستخدمه الصِّبْية عند مايتشاجرون .

(١٤) المؤلف : «فكل ممتلكات العدو تخشاه» وهي ترجمة خاطئة .

(١٥) الزّمام (وتصغيره زُمَيْم) : حلقة تتحلى بها المرأة تعلقها في أحد منخريها بعد ثقبه .

(١٦) أي أنه سريع لايضطر راكبه لحثه على السير . أما المؤلف فوضحه بما تعريبه «يامن تركب غالباً بعيراً وديعاً ، إنها لاتشير بعصاها» وشرح ذلك فيما بعد بأن المقصود أنها تشير لحبيبها بعصاها الذي تستعمله لِسَوْق جملها . وبرغم هذا الشرح مازلنا نرى أنه أخطأ في ذلك . فمن عادة الشعراء مدح المطية بأنها لاتضطر سائقها لِسَوْقِها .

(١٧) في الأصل (مقرودٍ) بتنوين الدال ، وبه ينكسر الوزن .

(١٨) المؤلف : «يكسر عظام الظهر فيفصلها إلى قسمين» .

(١٩) هذا تعريب ترجمة المؤلف . أما معنى عجز البيت فهو : «إنْ خلفَك قَوْماً كارهين لي» .

(٢٠) المؤلف : «يا اسم ربنا» ، والكلمة في البيت «سِما» وليست «اسم» ويبدو أن المؤلف خلط بينهما .

(٢١) هكذا في الأصل : «Twêret al-Ĭible» . وهي في البيت في الأصل طويرش القبلة «Twêret al-Ĭible» .

●●●

أخلاق عرب الروله وعاداتهم

(١٨٦٨ - ١٩٤٤م)

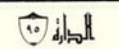
للمستشرق التشيكوسلوفاكي ألويس موزل ترجمة الدكتور محمد بن سليمان السديس

بنيَةُ المُجْتَمَع(*)

• حضرٌ وبَدْو •

يقسم الـرولة البشر إلى : « حَضَر »، أي أولئك الذين يسكنون بيوتـاً ثـابتـة، و« عـرب »، أي أولئك الـذين يسكنون بيـوت شَعر قـابلةً للنقل، لـذلـك فـإن « العربي »، هو الاسم الذي يطلق في أنحاء الصحراء كـافةً عـلى ساكني الخيمـة السوداء دون غيرهم. وتستخدم عبارة « عَرَبْنا رَحَلُوا، عَرَبْنا نَزَلُوا » للإشارة إلى أفراد العشيـرة الواحـدة. و« عرب **القبيلة** » هم أفراد القبيلة الواحدة؛ و« **عرب الدِّيَره** »هو الاسم العام للبدو الـذين يستوطنون المناطق المزروعة، وعلى تخومها، بغض النظر عن القبيلة التي ينتمون إليها.

وتعبر كلمة « عُرْبان » عن الانتماء لعشائر أو قبائل شتى. فعبارة : « **عُـرْبانٌ عـلى ضُمَير** » مثلاً تعني أن ثمة أفراداً من عشائر وقبائل شتى يخيمون في ضواحي (ضُمَير). وإذا قابل الرعاة أو الصيادون بدوّيـاً غير معـروف في منطقتهم سـألوه : « **إنتْ من اَيِنْ يـا ولد ؟** » أي : من أي قبيلة أنت أيها الرجل ؟ فإن قال : « **من هَالعرب** » أي : من هؤلاء العرب. سألوه : « **فاهمين أنَـك من العربْ مـارْ مِنْ اَيّ العُرْبـان ؟** » أي : نعلم أنك من العرب، لكن من أي قبـائـل (**العربان**) المختلفة ؟.



ويقسِّم قاطنو المنازل (الحَضَر) إلى : (قَرَاوْنَه - ويعرف الـواحد كقَـرْواني)، أي أولئك الذين لا يبرحون مسكنهم الدائم أبـداً؛ و(رَعْو) أو (رَعيْـه)، أي أولئك الـذين يستبدلـون بمساكنهم الثابتةِ أثناء موسم الأمطارِ بيوتَ شَعْرٍ قابلةً للنقل.

وبعد بذر المحاصيل في الخريف يبرح الرَّعو أو الرَّعِيَّة قراهم، وييممون بقـطعان أغنـامهم ومعزهم صوب السهوب، حيث يقطنون في بيوت الشَّعـر السود المنسـوجة من شعـر المعز، وفي الخيام الرمادية المنسوجة من القطن. وفي أواخر أبريل ومايو، حين يدنـو آوان الحصاد، يقفلون راجعين من السهوب إلى مساكنهم.

ويتألف (العرب) من البدو و (الشَّوايا) أو (الشُّويان). وللشوايا شيئان أسـودان « لِهُمْ سْوَادين » : بيوُت الشعر السود المنسوجة من شعـر المعز، والقـطعان والسـود من ضأن ومعـز. وهـذه القطعـان لا تمكنهم من التوغـل داخل الصحراء « ما يشـرِّقـون » فتقصر إقـامتهم عـلى الأراضي ذات الماء الوفير، والتي تنمو فيهـا الأشجار الحـولية كـل عام. وهم يخيمـون على شفـا الصحراء، ولذا يعرفون بـ « رُخْم الدِّيره » أي : أقارب (سكان) البلد المأهول. ولا يقومون بغـزوات مكثفة (غـزو)، ويسلِّمون للبـدو، على اختـلافهم، بالتفـوق، ويدفعـون لهم إتاوة (خاوَة) لحمايتهم.

والبدو عرب يربون الإبل دون غيرهـا من الحيوان، أو في الأقـل بشكل رئيس ، ويمكثـون داخـل الصحراء مـدة عشرة أشهـر (يشرِّقـون)، وينقلون في آخر يـونية إلى حـافة الصحـراء (يغـرِّبون)، ويسكنـون بين القـوم المستقـرين حتى منتصف أغسـطس، أو بـدايـة سبتمـبر، فيتزودون بالقمح والألبسة والأسلحة، ثم يعودون إلى الصحراء.

وفي حـافة الصحـراء تلاحَظُ زيـادة السكان المستمـرة، أو نقصهم المستمـر. وإن ضمنت الحكومة لسكان المدن والقرى أمناً تـامّاً للحيـاة والممتلكات حُـوِّل رعاة المَعْـز والضأن مـزارعين نشطين، فيبنون الأكواخ في كل صوب، وتظهـر قرى صغيـرةٌ للوجود، ويمسي الرَّعْو والشـوايا أناساً مستقرين مسالمين . فيكلون الاعتناء بمعزهم وأغنامهم إلى عشائر بدوية مختلفـة، لا تعود إلى الصحراء، بل تظل في الحد بين القرى والمستوطنات والتي تتحول إلى شوايا.

وإن لم يكن ثمة حكومة قوية في الأقاليم المأهولة اختفى الأمن على الحياة والممتلكات، وتلا ذلك نقص في عدد السكان، واستبدل بالمنزل الثابت بيت شعر قـابل للنقـل، وغدا الفـلاحون



شوايا. وعلى أية حال، لا يصبح القوم الذين سبق أن استقروا بدواً حقيقيين أبداً. لأن البدو الحقيقيين لا يعاملونهم على قدم المساواة معهم أبداً. ومن هنا فإن لفظ (بدوى) أضيق كثيراً من لفظ (عربي).

وليس سكان شبه الجزيرة العربية جميعاً، في رأى الرولة، عرباً حقيقيين، بل العرب هم أولئك الذين يتخذون من البيوت القابلة للنقل سكناً وحسب. ولكن ما العرب جميعاً ببدو. بل البدو هم أولئك الذين يقضون معظم العام في جوف الفلاة، ويقومون بتربية الإبل في الغالب، دون غيرها.

وتعترف القبائل كلها بأن الرولة بدوٌ حقيقيون. وخالصون إنهم : « بَعيدين الظَّعْنَهْ، واسعِين الطَّعْنَـهْ » أى : بعيدو الظعنه. . واسعو الطعنه. يعنى : إذا ظَعنوا وَصلوا إلى ديار نائية، وإذا طعنوا أصابوا ممن يطعنونه مقتلاً[٢]. وهم : « أهْل السِّنانْ والعِنان » أى : أهل الرماح والخيل. . فهم محاربون على صهوات جيادهم لقدرتهم على حمل الرماح، والتحكم في الخيل.

• قرابَة الدَّم •
بنو العمّ

ينتمى الرولة لتلك المجموعة الكبيرة من القبائل المسماة بـ (عُنِزه) المنتشرة في أنحاء شبه الجزيرة كلها تقريباً، والتي تنقسم إلى فرعين جنوبيٍّ وشماليّ. وتؤلّف عُنِزه الجنوبية القبائل التي ينتمي إليها آل أبا الخيل، وابن صَباح، وابن سعود، وعشائر شتى من قحطان والمُنْتِفِق. أما عُنِزه الشمالية فهم : ضنا مُسلم، وضنا بِشْر. وتشمل العشيرة الأخيرة : السَّبَعَة، والفدعان، والعَمَارات، كما تشمل الأولى : وِلْد عَلي، والرَّوَلة الذين يعرفون أيضا بـ (آل جْلاس).

ولا يُضْفَى حق (ابن العم) إلا على القرابة من جانب الأب. وكثيراً ما تسمع العبارة : « مَنْ قَدِيمْ جدّهْ ما هو ابن عَمّ كيفْ يصِيرْ لِنا ابن عمّ » أى : لم يك جدُّه قديماً ابن عم لنا، فكيف يصير هو لنا ابْنَ عمٍّ. ؟ أو : « بِني صَخَرْ أغلى لْنا مِنْ العَمَارَات، ولكن بالقُرْبَهْ هَذُولَ أقرب لنا من هَذُولَك، بِني صَخَر أجناب مالِنا وهُمْ جدٌ واحد » أى : بنو صخر أحب إلينا من

العمارات، لكن من حيث القرابة، هؤلاء أقرب إلينا من أولئك. بنو صخرٍ أجانب ليس لنا وإياهم جد واحد».

نزل ضبيعان بن خشمان السرحاني مع الرَّولة طوال ما ينوف عن ثلاثين عاماً (في سنة ١٩٠٩ م). وتزوج امرأة (رويلية)[٣]، وتزوجت أخته (مها) الأمير سطام الذي أنجبت له ابناً هو (طُراد).

وكان ضبيعان يشترك مع الرولة في الغارات الحربية، ويرتدي زيهم، ويتحدث أبناؤه كما يتحدث الروله، ومع ذلك فقد بَقُوا منتمين للسرحان. وما يؤلف (الأهْل) هم الأعمام (العَمَام) لا الأخوال. (الخَوال). ولو قتل أحدُ أبناءِ ضبيعان أحدَ الرولة لَلَجأ الابن إلى (أهْلِه) السِّرحان؛ ولابد من أن يقتص لدم الرُّوَيْلِيّ بدم رجل سرحانيّ.

وغالباً ما يُحتاج إلى الأقارب من طرف الأب أكثر من الاحتياج إلى الأقارب من طرف الأم: «عَمَامَهْ أَلْزَمْ مِنْ خَوَالِهْ» - «عَمَامَهْ عَصَبَهْ وخَوَالِهْ أرحام»[٤].

ويُحظر بين من يربطهم دم القرابة (أبناء العم) ربط اللص الأسير، «ما عليه الرِّباط»، أو الإغارة بعد منتصف الليل، أو قبل شروق الشمس مباشرة الذي هو أطيب وقتٍ للراحة «ممنوعْ عليهم البياتْ والصَّباحْ». والدية محددة بخمسين بعيراً، وفرس، ومعداتِ أسلحةٍ.

وتُمنح العشائر التي لا تَمُتُّ إلى القبيلة بوشيجة الدم، والتي يعود أصلها إلى أجداد مختلفين تماماً، قرابة الدم (بني العم) أحياناً إذا رغب الشيوخ. فإذا كان شيخا قبيلتين لا قرابة بينهما، أي أن كلا منهما (بَرّاني) أو (أجنبي) عن الآخر، لكنهما متحابّان، أعلنا أن كلا منهما سيمنح الآخر حق القرابة (حق البِني عم) أو (حق البِنْعَم) قائلَيْن: بيننا وبينكم صداقة البِنْعم سْواة البنيعم» أي: بيننا وبينكم صداقة ابن العم لابن عمه. وعليه يكون واجبُها حمايةَ جارٍ (قِصيرْ) كلٍّ منهما وضيفِهِ، ورفيقَةٌ في السفر (خَوِيّهْ)، حتى وإن كان عدوهما الحقيقي. كما أن واجب كل منهما إطلاع الآخر على حركات الأقوام المعادين. ولا قيمة، في الواقع، لمثل هذه الصداقة إن لم يلتزم بها الشيوخ. [إنما تكون] «يْصْليحْ الحَكِي من غير مَنْفَعَه». وإن قَتَل أحد أفراد هاتين القبيلتين رجلاً من القبيلة الأخرى لم يدفع الدية التي يبلغ قدرها خمسين بعيراً، كما هي العادة مع (بني عَمِّه) الحقيقيين، لكنه يدفع سبعاً وحسب، كما في حال القبائل التي لا قرابة بينها (أجناب). إن قُبض على لصٍّ من مثل هذه القبيلة فيجوز تقييده. وأكثر من ذلك يجوز مهاجمة مثل هذه القبيلة بعد منتصف الليل، وهو أمر محظور مع (بني العم) الحقيقيين.

• آل وأهل •

يقول الروله إن قبيلتهم تعرف بـ (**قبيلة**) أو (**بديدة**) أو (**عشيرة**) الرّوله . ولكلمة (**عشيرة**) معنى (**بِديده**) أو (**قبيلة**) نفسُه . ويشار إلى العشيرة ، وأحياناً إلى الأسرة ، بكلمة (**آل**) التي غالباً ما بدلت بها الأداة (**أل**) ، مع أن كل رويلي يعرف معنى الكلمة الأولى ؛ وتدل كلمة (**آل**) عموماً على ماتدل عليه(بِني) أو (ابن) ، ومعناها أوسع من معنى (أهل) . ومعناها أوسع من معنى (**أهل**) .

و(**فِريق**) هو الاسم الذي يطلق على جماعة من الأقرباء الذين ينحدرون من جدٍّ واحد . و(**الفريق**) أوسع أيضاً من (**الأهل**) .

و(**الأهل**) جماعة محددة بالنسبة للفرد وحسب ، فأهل الرجل يختلفون عن أهالي أبيه أو ابنه (**مع أن الأهالي الثلاثة في هذه الحالة يضمون أفراداً كثيرين مشتركين**) . ويؤلّف أهل الرجل خَلَفُهُ حتى الجيل الثالث ـ أي أبناؤه أو احفاده وأحفاد أبنائه ـ ويتضمون أيضاً سَلَفَه حتى الجيل الثالث ـ أي أباه وجدّه وجدَّ أبيه ـ ، ومن ينحدرون من هؤلاء الأسلاف حتى الجيل الثالث من كلٍّ .

والنسب معدودٌ عبر سلسلة الذكور وحسب . وإن أبعد الفروع التابعة لـ (**أهل**) المرء هم أبناءُ ابنِ عمِّ أبيه .

وثمة طريقة ميسرة لتقرر فيما إذا كان (س) من الأهل نفسهم الذين منهم « ي » هي أن تعد من « س »حتى الجد المشترك لكل من « س » و« ي » ، ومن هناك تبدأ في العد التنازلي لـ « ي » . سيكون « س »و « ي » من (**الأهل**) نفسهم شريطة ألا يُعَدَّ بين « س » و« ي » أكثر من ثلاثة أجيال أيضاً .

وتفسِّر فكرة (**الأهل**) هذه معرفة البدوي بَجدِّ أبيه ، في حينٍ من المرجح أن يكون على جهل تامٍّ بجَدِّ جَدِّه .

وقد أخبرني رفيقي بْلَيهان بالإيضاح التالي لأهْلِه هو : « أنا ابن ضِري الذي انحدر من مِصْرِب . خَلَّف (ضِري) داغراً وصالحاً . وخلف داغرٌ إبراهيم و(بَغْري) . وإبراهيم أبي خلَّفني ، أي بليهان ، وجيعانَ ، وعَشْوان ، بينما كان أبناء بَغْري هم : دَفْران ، وراشد ،

ومِرْشِد. وأبناء صالح هم : بِدِي، وجْلَيـدان. خَلَّف بِدِي (نِيْتول) وذْياب، وكـان لجليدان (نِجيبْ) و(صيّاح). كل هؤلاء أقاربي. . أهلي. . ولا أحد غيرهم. وصـل (أهل) أبي إلى الوراء حتى نَصّارُ أبي ضِرِي وعبد الله، ولكني لا أحْفِلُ بذرية عبد الله بتاتاً، فلن يدافعوا عني، ولن أدافع عنهم ».

ولم يعرف بليهان أي شيء عن أبي نصار خلا أنه ينحدر من أهـل مِصْرِب، ولـذلك عُـرف بابن مِصْرب، وأن له أخاً اسمه (**معروف**). لكن لا بليهـان ولا أي من أهله استطاع معـرفة عدد الأجيال بينه وبين مِصْرِب. كان بليهان يعدُّ نفسـه بعيداً من ابن دِفْران بثلاث درجـات، (**أي بـ ١ = أبيـه، ٢ = جدِّه، ٣ = عمِّـه**)، وعلى نحـو شبيه بـذلك، كـان يعدُّ نفسـه بعيـداً بخمس درجات من ابن عمه غير المباشر (**نجيب**).

وكلما كـبر الرجـل اتسعت دائرة أقـاربه، شـريطة أن يخلِّف أبنـاء، بـطبيعـة الحـال، لأن (**أهله**) عندئذٍ لا يؤلفون أباه وجـدَّه، إن كانـا حَيَّيْن، وفـروعَهُ وحسب، بـل أبناءه وأحفـاده أيضاً.

و (**أهل**) الرويليّ يحمونـه من الجور، كـما ينالهم أذى مـا يرتكبـه من جرم. ومثـل هذه القـرابة العرقية يعرف أيضاً بـ (**أهل**). وهذا الممثل، أي (**الأهل**) بمدلول الكلمة الضيق، يعنى عادةً إما الأبَ أو العمَّ، أو الأخ الأكبر.

كان لسعود ابنِ الأمـير النوري بيتُـه الخاصّ بـه. ولم يكن إذا قال : « **سـأذهب إلى أهلي** » يدخل ذلك البيت أبداً، بلَ بيت أبيه الأمير النوري. وإن لم يكن الأخير حاضراً أسرع إلى أخيه الأكبر نواف.

والإعلان الجادّ بأن شخصاً ما قد قُبل في (**الأهل**) الفلانيِّ قد يحل محل قرابة الدم.

و(**أهل البيت**) تعني : امرأة صـاحب البيت، أو امرأة أخيـه، لكون البيت بكـل من فيه تحت إمرتها. وترادفها عبارة (**راعْيةُ البيت**) أي : سيدة البيت. ويدعو الضيفُ (**أهل البيت**) إن أراد لحافاً لفراشه. ويدعو البدوي الذي يقطن بيتاً له زوجَهُ (أهلَ البيت) و(**أهل بيتِي**) أو (**راعية بيتِي**). وإن كان له أطفال فـإنهم تابعـون أيضاً لـ (**أهـل البيت**). ولا تدعـو الزوجـة زوجها أبـداً (**أهـل البيت**) أو (**أهـل بيتِي**)، بـل (**راعى البيت**) أو (**راعى بيتنـا**) : رب الدار، ربُّ دارنا. وإن كان لها صغير فإنها تدعو زوجها (**أبو فلان**). وطالما كان الـرويلي يقيم

في بيت أبيه فَمُحالٌ أن يتكلم عن (أهل بيته)، ولو كان متزوجاً وله أطفال، فهو ومن يعول يتبعون أسرة (أهل) أبيه. وإن توفي الأبُ وظل أبناؤه وأسرهم في بيته عُرِف ببيت أبناء فلان (بيت عْيال فلان)، أو بيت أُمِّهم إن كانت على قيد الحياة. و(أهل البيت) في مثل هذه الحالة إما أن تكون الأم العجوز، أو زوجُ أحد الإخوة المسؤولةَ عن البيت. وإن لم تستطع زوجُ الأخ الأكبر الانسجامَ مع أزواج الإخوة الآخرين قال لها زوجها: «من الآن فصاعداً ستمكثين في هذه الزاوية، وستكون فلانة «أهل البيت» أو «راعية البيت». و(أهل البيت) عند الرّوَله تطابق (العيله) عند القبائل الأخرى.

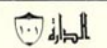
وتعني كلمة (أهل)، في مدلولها الأوسع، القبائل المتميزة، والتي تتوحد، في الغالب، من أجل تأمين الحماية المشتركة لنفسها. وعلى هذا يمكن التحدث عن (أهل الجبل)، وهي عبارة يُفْهَمُ منها، القبائل المتفرقة ذات الأصول المختلفة، التي تخيم في الأجزاء الشرقية والجنوبية من سلسلة جبال حوران.

و(أَهْل الدِّيرهْ) هم سكان القرى المختلفة الذين لا يبرحون أرضهم البتة، فأهالي الكِرَك هم القبائل المختلفة التي تؤلف سكان مدينة الكرك، وهكذا.

و(العَيله) تعني: «الأسرة التي لها مسكن وموقد مستقل». «العَيلةْ أَهْل الجْدارْ والنّارْ». وأي رجل مستقر، له مسكن خاص به، وفيه زوج تطبخ له الطعام، يقال إن له (عيله). ويستدل الرولة بكلمة (ذرية) كلمة (صِنّنا) التي تدل على الأشخاص المنحدرين من أرومةٍ واحدة انحداراً بعيداً جداً، بغضِّ النظر عما إذا كانوا قد انحدروا حقيقةً من جدٍّ واحدٍ، أو أن القرابة كانت ثمرَة تَبَنٍّ.

• الشيوخ •

تعني كلمة (قَوم): «البدوَ الذين يحكمهم شيخ». لذلك لك أن تقول: «قَوم ابْنْ شَعْلان» أي: هو من قوم ابنْ شَعلان؛ - «قَوم ابنْ مِعْجِل مخيمون هنا لك»؛ - «قَوم ابنْ جَنْدَل اشتركوا في الغارة أيضاً» لكنك لن تسمع أبداً عبارة: «أولئك (قَوم) الرّوَله» أو: «إنه ينحدر من (قَوم) الفَرجَهْ».



وإذا تحدث الأمير ابن شعلان عن « جماعتي »، ففي ذهنه مختلف العشائر التي تلبي أوامره، وتهب لعونه (يفْزَعُون). وتكاد كلمة (جماعة) تعني ما تعنيه كلمة (قَوم).

ورتبة الشيخ وراثية في أسرة محددة (آل). ومن المعتاد أن يكون الشيخ المعترف به هو الفرد الأنسب جسماً وعقلاً، وليس ضربة لازب أن يكون أكبر أفراد الأسرة الحاكمة سناً. وتستمر الأسر الحاكمة عند العشائر والقبائل حاكمة حتى تنقرض، مع أن سلطتها قد تَهِنُ وَهْناً شديداً، وقد تتخلى عنها عشائر عديدة. ويطاح بالشيخ العامّ، أو الأمير الذي يمثل قبيلةً برمتها، أو عدداً من القبائل، والذي يخضع له الشيوخ الآخرون طوعاً أو كَرهاً، أسرعَ مما يطاح بالشيخ العادي، وتتحول رتبته إلى عشيرة أخرى، وأكثر ما يجري ذلك إذا لم يتميز الشيخ العامُّ وارثُ الرئاسة بمقدره حربية. . فيدير، عندئذٍ، شؤون قبيلته الخارجية بصفته (شيخ الباب)، في حين توكل أمور الحرب إلى رجل معروف بالإقدام وحصافة الرأي، وإن كان من عشيرة أخرى. ويعرف مثل هذا الشيخ بـ (شيخ الشَّدَاد) أو (شيخ الحرب). وإن أفلح في قهر العدو، وتوصل إلى فرض سلام لصالح القبيلة انضمت إليه عشائر أخرى عدة تطيعه في زمن السلم، ثم تتبع ذلك حروب يخضع فيها الشيخ العام الوارث، وتعترف أسرته بتفوق الحاكم العسكرى السابق، الذي يضحى إذ ذاك (شيخ الباب) أيضاً.

• تقاليد تتعلق بشيوخ الرُّوَلَه •

كان الشيخُ العامُّ للرُّوَلَه كلهم ينحدر، طبقاً للعرف، من عشيرة القَعْقَعه. وكان شَعْلانُ ابناً لأبوين وجيهين. ومع أنه لم يكُ يملك لنفسه من قطمير، فقد كان مسؤولا عن رعاة عشيرة آل مُرْعَظ بصفة (فداوى) أي : خادم حرّ. وكانت القطعان ترعى في ضواحي إحدى المستوطنات في نجد. وذات مرة، نَهَبَ القَعْقَعة قطعانَ الضأن والمَعْز من الحَضَر، وساقوا إبلهم عبر حقولهم. فانطلق الحضرُ نحو إبل القوم ومَضَوْا بها، وخبّؤوها في بساتين النخيل المسوَّرة. فأحاط الرُّوَلَه بالمستوطنة، لكنهم لم يتمكنوا من تحطيم وسائل الدفاع، وهدد الحضرُ الرُّوَلَه بأن الأباعرَ المحتجزةَ ستَنْفَق جوعاً إن لم يرفعوا الحصار. لذلك جنح شيخُ الرولة العامُّ للسِّلم، وعرض الصلح على أكبر الحَضَر سنّاً. فأعلن الشيخ أنه لن يباحث في الأمر أحداً سوى « شَعْلان » الذي كان يعرفه، ولن يُخَلِّي سبيل الأباعر إلا له. فدعا الشيخُ العامُّ شعلان له، وقال :

- إن صديقَك، كبيرَ الحَضْر، لن يخلّي سبيلَ الإبل إلا لك، فامْضِ إليه واتفق معه باسمي.
- أنت شيخنا، ولك الأمر، ولك الرأى.
- إمضِينّ إليه عاجلاً، واتَّفِقَنّ معه باسمي !
- لن تنفذوا ما أبْرِمهُ معه من اتفاق !
- سنُنَفِّذنّه !
- أستُعيدون إلى الحَضْر الشاء والمَعْزَ التي استوليتم عليها ؟
- نعم سنعيدها !
- فلتبعث ممثلي عشيرتيِّ الفَرْجة والرِّبشان ليتكفلوا بذلك.
- أنا، فلان، أضمن بأن الفَرجة لن يسمحوا بأن يُقطع للحضْر خيطٌ واحدٌ !.
- أنا، فلان، أضمن بأن الرِّبشان له يسمحوا بأن يُقطع للحضر خيطٌ واحدٌ !.
- حسناً (زَيِنْ). أعطني الآن خَتمك !
- لأي شيءٍ تريده ؟
- كيف أستطيع أن أسَوِّيَ أي أمرٍ باسمك بدون خَتمِك ؟

ناشد ممثلو (الْفرجةْ) و (الرِّبشان) الشيخ بأن يسلم شعلان الخَتم، وتم ذلك ؛ فذهب شعلان إلى الرجل، وتوصل معه إلى اتفاق أعاد الحضر بموجبه الأباعر المحتجزة (**أدْوُا النواقص**)، وتسلموا ضأنهم ومَعِزَهم، وتخلَّوا عن المطالبة بالتعويض عن القمح الذي أفسد.

وأثنى الجميع على شَعْلان، وقالوا : إنه لرجلٌ شهم (**صاحب المَرْجَله**).

و(صاحب المَرْجَله) يجب أن يكون ذا قلب جريء (**قلبه قاوى**)، وأن يكون له عقل حادّ الذكاء ليتغلب على الصعاب (**راعيِ فِتِل**)، وأن تكون له دراية بالأمور واسعةٌ (**لهْ عِرْف**)، وأن يكون بعيد النظرة في المستقبل (**شُوفتِهْ بْعيده**)، وأن يتحلى بالأناة والصبر (**له صَبِر**).

ظل شَعْلان في المستوطنة، ولم يُعِد الخَتم للشيخ العام، وآزره الحَضْرُ والفَرجةْ والرِّبْشان. وبعد أربع سنوات أطاح بالشيخ العام، وتولى هو قيادة مصير الرولة عن بكرة أبيهم.

وقد تلا ذلك صراعٌ على الأحقية بالرئاسة بين الشيخ العام (**ابن شعلان**) ورَوْلَتِهِ، وبين

الشّرَيفي شيخ الكواكبه، وهم من فخذ قحطان من عَنَـزه. وكان الكـواكْبه أصـلاً مستقرين في نجد. وتقدموا تحت إمرة شيخهم الشّرَيفي إلى أراضي الروله، وضربـوا بيوتهم إلى الشرق من الجوف. وأرادوا التمتع بـالاستقلال التـام (العَمَال والقَـوَال لَهُم)، لكن الـرولـة أعلنـوا أن عليهم إما الخضوع لسلطتهم أو الانسحاب. فاتحدوا مع شمر والظَّفير وقاموا بغارة عظيمة عـلى القبائل المجاورة الموالية لابن شعلان. وتولى قيادتَهم أبناءُ الشريفي السبعة. وكان مع الشريفي إذ ذاك، رجل من عشيرة الفَرجة اسمـه (مِجي) يعمل راعيـاً للإبـل. وفي الليل، بعـد ذهـاب المحاربين، قال له الشريفي : « **أيُّ رويلي أنت يا مِجي ؟ تتعشى مطمئنًا، وقومك معرضون للسّحق ؟!** ». فـأجاب مِجي : « **المقـدر كائن** ». وبعـد أن فزع من عشـائـه اضـطجع، ومكث حتى نام القوم جميعاً، فقام ووضع الرَّحْلَ على أسرع النوق، وانـطلق بأقصى سـرعةٍ إلى قـومـه، محذِّراً لهم، ومُخْبِطاً خِطة العدو. فأخفى قومُهُ قطعـانَهم في وادٍ آمن، وفتحوا أكيـاس الجلد التي أودعوا دروعهم، وتأهبوا للقتال. وكانت قـد لُفَّت على الـدروع أوراقُ نبتةٍ ذاتِ عَـرْفٍ قويٍّ تسمى (جَعْـدِه) حتى لا تُفْسِدَ قـطعُ المعدن الأكيـاسَ الجلدية، ولئـلا تـأكـلَ العِثّـةُ والأرَضَـةُ الجلد.

ولما لبس المحاربـون دروعَهم تَضَوَّعَ مـا حولهم بـرائحة الجَعْـدِه. وخرجـوا، بعد منتصف الليل، من مخيماتهم راكبين متجهين إلى بقعةٍ معينةٍ في الجهة التي توقعـوا أن يأتي الهجـوم منها، ثم نزعوا عن الإبل رحالها وأعادوها، وأخفوا الـرِّحال - بـالحاء -، واحتلوا الصخـور التي تكاد تحيط بحوضٍ ذي عشبٍ وفيرٍ إحاطة السِّوار بالمعصم.

وبعد شروق الشمس ساق الرعاة الرِّكاب ونحوَ مـائتين وخمسـين بعيراً أخرى داخل هـذا الحوض ليرعوها. وصدحوا بأنشودةٍ مَرِحةٍ ليسترعوا انتباه عيون العدو.

اكتشف العيـون القطعـان، وأنبأوا بهـذه الحقيقة أبنـاء الشَّرَيفي السبعـة الذين أمـروا بأن تهاجمَ القطعـان. فامتـطى المحاربـون صَهوات جيـادهم بسرعـة خاطفـةٍ، وخرجـوا عَدْواً إلى الشِّعب المؤدِّي إلى الحوض. كانوا آتين من الجنوب الشرقي، وكـانت الريح هابَّـةً من الشمال الغربي. وعند دنوِّهم من الشِّعب صاح بـأبناء الشَّـرَيفي السبعة شَمَّـريّ يمتطي جـواداً نشطاً : « **أشم رائحة (جَعْدِه) ! أشم رائحة (جَعْدِه) ! الفرار ! الفرار !** ».

- **كذاب ! من أين لك أيُّ (جَعْدِةٍ) هنا ؟**
- **لقد أتتني الريح برائحة (الجَعْدِه) ! الفرار !**

ثم انحرف ولاذ بالفرار، وهرب معه مَشْلانُ أصغرُ الأبناءِ السبعة. وسار سائر الأبناء مع الكواكْبه جميعاً ومعظم شمر والظفير عبر الشِّعب داخل الحوض، وثبتوا على متون خيلهم. وفي الحال احتل الرولة الشِّعب وسدوه، وأحاطوا بالعدو. وتلا ذلك قتال عنيف.

وكان الذين برز تميزهم في المعركة أكثر من سواهم من الرولة هم: الـدْرَيعي بن مشهور، ومِجْول آل مِجْول، وفهيـد بن مُعَبْهل. وسقط أبنـاء الشْريفي الستة جميعاً صرعى. ولم ينجُ من سائر الأعداء إلا بضعة محاربين التمسوا النجاة بالفرار على أقدامهم، لأنهم لم يكونوا يستطيعون الخروج على ظهور خيلهم بسبب الصخور.

وبعد أن تخلص الروْله من الفارِّين، شدوا الرحال على نوقهم، وأغاروا على شمر والـظفير الذين كانوا يحرسون الإبل والماء والمؤن. فلم ينجُ منهم سوى عشرة رهطٍ، وبات الباقون جميعاً بين قتيل وأسير. ولم يسلم من الكواكبة كلهم إلا مَشْلانُ ابنُ الشْريفيِّ الأصغر، فقد انطلق بـه شَمَّريٌّ على بعيره، الذي كان فائق السـرعة، نحـو مخيم أبيه. ولـما دخل البيت قعـد جانبـاً مع مشلان. وبعد برهة سأله الشريفي:

- ما الأخبار (العِلم)؟

- لا أخبار (ما من علوم).

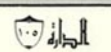
- والله لئن لم تخبرني بالأخبـار لأقطعنّ رأسـك الآن! « **والله اليا مـا عَلَّمْتِني لا قَطَعْ راسَـك بالسيف!** ».

لم يُلْقِ الشريفي على ابنه مَشلان ولو نظرةً واحدةً أو يخاطبْه.

وبعـد أن قص الشمَّـرِيُّ عليـه القَصص، وأبلغـه بـأخبـار نتيجـة المعـركـة، قـال: « **يا الشْرَيفي. ألا ترى حبيب عينيك ؟** ».

كان الشريفي صامتاً. وبعد قليل دعا زَوْجَةُ أُمَّ الأبناءِ السبعة جميعاً، والتي كانت قاعدةً وراء الحـاجز، وقـد سمعت الأخبار كلهـا. وسألهـا: « يـا راعيـة بيتي! أين مشـلان ابنُـك الأصغر ؟ »، فأجابت، وهي تنظر إلى مشلان: « **لم نَحْمِلْ، ولم نَلِدْ، ولم يـأتنا ابْنٌ اسْمُـهُ مشلان!** ». « **لاحَمَلْنا، ولا ضَنَيْنا، وْلا جانا وَلَدِ اسْمِة مشلان!** ».

بَرِح مشلان منطقة الكواكْبه، ولم تقـع عليه هنـاك عينٌ أبـداً. أما أُمُّـه زوجة الشـريفي فقضت نحبها أسىً بعد ذلك بقليل.



وقد أراد الكواكبة وشمر أن يمحوا عار هـزيمتهم المنكرة وينتقمـوا . . فزحفـوا في العام التالي على الرّوله، وسيُقَرَّر في هذه الجولة نهائياً من ينبغي أن يحكم، لذلـك زحـف الكواكبـة مع أسرهم وبيوتهم وقطعـانهم، وأقامـوا معسكر حـرب (مناخ) ضـد الرّولـة الذين كـانت بيـوتهم قد ضـربت حول آبـار (جَوْ مُغَيـرا) و (الـخُوعـا) أو (الخاوه) شـرق مستـوطنـة سكاكا.

وقـد سبق أن احتل الـرولة الآبـار كلها، وأراضيَ واسعـةً نسبياً حـولها من قبـل . وقـام الكواكبة مع شمر بعدة هجمات على حي الرولة، لكنهم كانوا يُصَدُّون في كل مرة.

أما الرّوَلة الذين كانوا تحت إمرة القائد (عقيد الحرب) المشهور فهيد بن مَعْبَهل، فلم يكونوا يقومون بهجوم أبداً، بل يضغطون على خصومهم، ويـدنون منهم شيئـاً فشيئاً حتى لم يعـودوا قادرين عـلى الاستقاء من أي مكـان . ولم تقتصر مقاسـاة الظمـأ على الحيـوانات بـل شملت الناس أيضاً. وقد عانى النساء والأطفال بخاصة. وكان الكواكبة يقدمون بعيراً لقـاء الدلو الواحد من الماء (**نحو عشرة لترات**)، وكانوا ينحرون الإبل، وينتفعون بما في أجوافها من ماء.

وكـان للشريفي ابنـةٌ اسمها (قُـوتْ) جمعت بين الحسن والجـرأة. وقد قـررت، بعد أن استشارت نساء الكواكبة الأخريات، أن تذهب (**بوجه**) أمير العـدو فُهَيدْ إلى بئـر (مُغيرا) طلباً للماء. فأعدت النساء القِرَبَ ووضعنها على الجمال، وركبن إلى بيت الشّريفي لِيَصْحَبْنَ ابنته قُوتـاً في رحلتها المغـامِرة. فلما استـوت على متْن بعيرها هتفت : « يـا فُهيَد، يـافُهيَد، **فلتعلم أنني أركب (بوجهك) تحت حمايتك** » . وكـانت النسوة اللواتي يـرافقنها يـرددن هذه الكلمات بعدها. ولما رأى حراس الرّوَلة أن أكثر من ألفِ ناقةٍ تدنو، تقودها أمرأة، وتركبهـا نساء، نَسُوا، لفرط دهشتهم، إبلاغ قادتهم بالخبر، وانتظروا ليروا ماذا يجرى.

ولما دنت قوت بحيث بـاتت على مسمـع من القوم هتفت : « يـافُهيَد، يـافُهيَد، فلتعلم انني اركب (بوجهك)! « **يافُهيَد تراني بْوَجْهَك** ! ». فسمع الحراس ذلك. وانـطلق الفِتْية الصغار منهم نحو الإبـل المقبلة، وعلى الـرغم من صوت كبـارهم المحذِّر، قبضـوا على خـير الإبل والنساء القاعدات عليها. وانطلق من المخيم شبان آخرون، وخـلال ساعـة أصبحت حاشية قوتٍ كلّها غنيمةً لمحاربين شتى.

لم يك فهيدٌ حاضراً في المُعسكر، فقد خرج في جولةٍ على المنطقة المحيطة به.

ولما سمع عَبْدُه المُبينُ قوتاً تعلن أنها ركبت (بوجهه) فهيد، وضع سُرْجاً على أسرع جوادٍ لديه وامتطاه، وانطلق ليلتمس سيده، فلقيه غير بعيد لأنه كان عائداً لِتَوّه.

وما أن علم فهيد بأن قوتاً قد ركبت (بوجهه)، وأنها تعرضت للنهب والسبي حتى استولى عليه غيظٌ شديدٌ وحَنَق، وأطلق صيحة حربٍ مدويةً معلناً أنه سيُحرق قبل شروق شمس اليوم التالي، كلَّ بيتٍ يجد عنده إبلاً لحاشية قوت. ومن يرغبْ في النجاة من هذا العقاب عليه إحضار ما سرق من أباعر مع كامل عدتها، وما سَبَى من نساءٍ، أمام بيته قبل أُفول الشمس.

وركب قوم فهيد وعبيده، دون تريث، وطافوا بالأحياء، وأعلموا الناس بما طلب.

ومضى فهيد نفسه هو وأكبر عبيده إلى البيت الذي تقيم فيه الأسيرة قوت. وأمرأن يُشَدَّ الرَّحْلُ على ناقتها، وطلب منها أن تحلَّ ضيفاً عليه، وقادها نحو بيته، حيث خصص لها فيه أحسن مكان.

وبناء على أمره، ذبح عبيده خمسة جمالٍ، وأعدوا وليمة عشاءٍ كبرى لقوتٍ ولكل صَحْبِها من النساء اللواتي اجتمعن بها قبل غروب الشمس.

ولم يفقد بعيرٌ واحد، ولا قِربة واحدة، ولا رَحْلٌ واحد. وقام عبيد فهيد وأقاربه يسقون الإبل، ويملأون القرب اللَّيلَ كله، وبعد غروب الشمس أخذها النساء، ومضين راكباتٍ مع قوت إلى أُسَرِهنّ العطشى.

وقد رافق فهيدٌ قوتاً حتى باتت على مرمى حجرٍ من بيت أبيها.

وكان الماء المجلوب كافياً لخمسة أيام. وبعد ذلك شرع الصِّبْية يبكون من جديد طلباً للماء، وتهاوت إبل كثيرةٌ فَتِيَّةٌ عَطَشاً. فطلب النساء من قوت أن تذهب ثانية من أجل الماء، لكنها لم تستجب، ودعت إلى عقد السلام مع الرّوَلَه. وتحت إصرارها بعث كبار الكواكبة رسولاً إلى فهيد يحمل طلباً للسلام، وقدم للرّوَلَة نصف قطعانهم، فوافق فهيد، وتُوُصِّل إلى حل سلمي.

وتعرف هذه الحرب العنيفة بـ (مناخ الضِّبرين) أي: معركة المجاعتين.

أما شمّر، حلفاء الكواكبة، فلم يقبلوا الاتفاق، وهددوهم بالحرب فقرر الشريفي عندئذٍ أن يعترف بسلطة الدّرّوَلة وينضم إليهم أنضماماً تامًّا. وتزوجت ابنته قوت فهيداً، وأقام كواكبته مع الدّرّوَلة في حي واحد.

وظل بيت الشّريفي بعد انتقال قوتٍ إلى فهيد بلا امرأة مسؤولةٍ عنه. لذلك وضع الجواري تحت إمرة أرملة مُحاربٍ شَمَّريٍّ كان قد سقط في الميدان. جاءت الأرملة لبيته بأرزاق كثيرة.. زُبْدٍ وتمرٍ وأرُز، وقالت له:
- تزوجني وسأخدمك ليل نهار.
- حسناً سأرى.

وكانت المرأة الشمرية تصنع له وجباتِ طعامٍ شهيةً، وتنظم البيت، وتحثه على التزوج بها. لكنّ الشّريفي تجنبها. ولما كان مخيماً مع الدّرّوَلة في (النقره) إلى الجنوب من دمشق، جاء بغتةً بفتاةٍ من أقاربه (بنت عمٍّ له) وأدخلها بيته. ولم تَفُهِ الأرملة الشمرية بكلمة؛ لكن لما اضطجع الشريفي، في اليوم الثاني، في وقت القيلولة الحار، أخذت مدية وجَبَّت بها مذاكيره، ثم فرت إلى بيت بعيدٍ حيث طلبت الحماية (دْخَلَتْ عَلَيه). فرافقها صاحب البيت إلى قافلة كبيرة ماضية نحو نجد، ووصلت أهلها سالمةً.

وتدلُّ سيرة الدّرّوَلة التاريخية أن قسم (ضَنَا مِسْلم) كانوا قديماً مقيمين في ضواحي خيبر، حيث ما برحوا يملكون نخيلاً (جلال) في وادي (الجَلاس). ويقال إنهم انتقلوا من هناك إلى الشمال. وكانت أول قبيلة تهاجر هي (الـحْسِينة) التي ينحدر شيخها من عشيرة ابن مِلْحِم؛ وقد وكلت إليه إدارة طريق الحج من دمشق حتى العلا، وكان يتسلم من الحكومة مبلغاً كبيراً من المال لقاء ذلك. وما فتئت عدة أسرٍ من (وِلْد سْلَيمان) و (وِلْد علي) تملك نخيلها في واحة خيبر. وللسراحين التابعين لقبيلة الـسْبَعَه، والذين يخضعون لشيخ عشيرة (أبو شامة)، فلاحوهم هناك.

وكان قائد الدّرّوَلة (شيخ الشداد) في أوائل القرن التاسع عشر من عشيرة (السوالمه)، وكان اسمه الدّريعي بن جَنْدَل[٦].

وقد آزر بطن ابن بُنَيَّة من عشيرة المُرْعظ الرويلية الوهابيين (كذا) الذين انتصر الأمير محمد بن علي على خصمه عبدالله بن رشيد بمعونتهم، وأخرجه من مستوطنة حائل مدةً. وتملك أسرة ابِنْ بنيَّة آبار (الهِيكة) و(الشّقيق) الهامة.

ولما تبعث ذلك ثورة عامة ضد الوهابيين (كذا) أبلت عشيرة ابنُ شعلان من المُرْعَظ بلاءً حسناً. وكان على رأس العشيرة نـايف، وهو ابنُ لعبدالله بن شعلان الـذي أخذ القيادة من عشيرة ابن جندل في الحرب، وكان له سبعة أبناء ماتوا جميعاً ميتاتٍ عنيفةً، وصار الشيخَ العامَّ بعد وفاة (حمد) الذي خلف ابناً واحداً هو (سطام).

وقد كسب فيصلُ، الابنُ السادسُ لنايف، شهرةً طبقت الآفاق. وثبّت سلطة الرَّوَلَة حتى جنـوبي دمشق في إقليم (الجَيْدور)، أو، كـما يقولـون، في (النقره). وحـارب (وِلْد عـلي) تحت قيادة محمد بن دُوخِي بن سمير. وقد، شاء عدد من شيوخ قبيلة الرَّوَلَة مثل ابن مِعْجل، وابن جندل، وابن مُجيد أن يتحـالفوا مـع (وِلْد عـلي)، لكن فيصلاً أحبط خـططهم، وقتل قـائدهم بَرْجس بن مشهور عام ١٨٥٩م بيده، وسرعان ماهزم حلفـاء محمد عن بكـرة أبيهم بعد ذلـك قرب مستوطنة بُصْرَى.

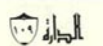
ولم يكن فيصـل يتوقف عن شن الحـروب، وكان ينتصر فيهـا، فـأمسى سيـد شمـال بـلاد العرب الأكبر، غير أنه لقى مصرعه في ١٤ يناير سنة ١٨٦٤م، على يـد طالبي ثـأر برجس (بن مشهور)، وهما أخوه نهار، وابن أخيه حمدان[٧].

وكـان الشيخ العـام الآن [أي بعد مـوت فيصـل] هـو طـلال بن فيصـل. وكـان القـائدُ العسكريُّ حمَدَ بْنَ بْنَيَّه. وقد تميَّز تميُّزاً فريداً بين المحاربين سطام بن حمد بن شعلان، وهزاع بن نايف السابع والأخير. وكانت زوج هزاع هي ثُقْلا ابنة الشيخ فايز بن جندل، التي ولدت ابْنَيْهِ النوري و(فهد). أما ابنُه محمـد فأنجبتـه أمٌ أخرى. وبعـد وفاة هـزاع تزوج سـطام أرملته التي أنجبت له مشعلاً فيـما بعد. وتـزوج سطام بن حَمـد، عن حبٍّ، (تُرْكِيّـة) وهي من أسرة (ابن مُهَيْد) التي انحدر منها شيخ مشايخ الفدعان. لقـد ولدت لـه ولديه (خالـد) و(ممدوح). وفي شتاء عام ١٨٧٧ — ١٨٧٨م كان سطام قد أضحى شيخاً عامًّا لمشايخ الرَّوَلَة[٨].

وتوفي سطام عـام ١٩٠٤م، وقد نَصَبَ فَهَـدَ بن هزاع خليفـةً له، لكنـه اغتيل، عـلى أية حال، بتحريضٍ من أخيه النوري[٩].

• النُّورِي بن شَعْلان •

يسمى الرَّوَلَة رئيسهم العام، أو أميرهم (شيخ)، و (شيـوخ)، أيضاً. وقـد يسمع المـرء عبارة «طَبِّيت على الشيوخ وهو كان نايم» أي: أتيت الشيخ وكان نائماً.



والشيخ العام النُّوري بن شعلان يعلن الحرب، ويعقد الصلح، ويتكفل، تحت نظام الحكم التركي، بالضريبة التي تطلبها الحكومة من الرَّوَلَة خلال إقامتهم السنوية في النُّقره. وقد دفع في عام ١٩٠٧م مبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة ليرة تركية (**١٥٧٥٠ دولاراً**)، وفي عام ١٩٠٨م مبلغ ألفي ليرة تركية (**٩,٠٠٠ دولارٍ**) فقط لأن عشائر عديدة من قبيلة الكواكبة هاجرت إلى العراق.

وكان النورى يزيد الضريبة النصفَ، ويوزع النصف حصصاً بين مختلف الشيوخ الذين يزيدونها، بدورهم، ويَجْبُون من مالكي بيوت الشَّعْر المختلفة حصتهم حسب عدد إبلهم.

وبعد حين، كان يخرج النوري، أو ابنُه، راكباً مع عبيده إلى مختلف الشيوخ، ويجبي الضريبة. ويعاقَب الذين يهربون ولايؤدونها، إذا قبض عليهم، بأن يغرَّموا بعيراً. وكان الأمير يحوِّل الضريبة المجبية بموعدها المحدد إلى الحكومة، ويحتفظ بالنصف الذي أضافه. وكان يدفع، من هذا المبلغ، مخصصاتٍ إلى أفراد الأسرة الحاكمة وبعض الشيوخ، فوزعت المبالغ التالية:

- **لخالد بن سطام ١٥٠ ليرةً تركية (٦٧٥ دولاراً).**
- **لِعَذُوب بن مجْوَل ٢٠ ليرة تركية (٩٠ دولاراً).**
- **لفهد بن مشهور ٥٠ ليرة تركية (٢٢٥ دولاراً).**

وكان يُبقي لنفسه مائة وخمسين ليرة تركية (٦٧٥ دولاراً) في الأقل. وكان يبيع، بالإضافة إلى ذلك، ثلاثة جيادٍ أو أربعةً، وثلاثين أو أربعين بعيراً سنوياً.

ويشتري الأمير لخيله، التي يتراوح عددها بين ثلاثين وخمسة وثلاثين، خمسةَ أحمال شعير، ثمنُ كل جمْلٍ ليرة تركية واحدة (**أربعة دولاراتٍ ونصفٌ**)؛ **ويشتري أربعين جمْلَ دقيقٍ لضيوفه وعبيده وأسرته، سعرُ الجمْل الواحد أربعين مجيدية (٣٦ دولاراً)**؛ وعشرين جمْلَ قمح، ثمن الجمْل خمس عشرة مجيدية (**١٣,٥٠ دولاراً**)؛ وسبعةَ أحمال بُرْغل، ثمن الجمْل ليرتان تركيتان ونصف (**١١,٢٥ دولاراً**)؛ وثلاثةَ أحمال من الأرز، ثمن الجمْل أربعُ ليرات تركية (١٨ دولاراً)؛ وجمْلاً ونصفاً بُنّاً، ثمن الجمل مائة مجيدية (**٩٠ دولاراً**)؛ وجملين سُكَّراً، **سعر الجمل خمسُ ليراتٍ تركيةٍ ٢٥ دولاراً**؛ وزبدةً بخمس وخمسين ليرة تركية (**٢٧٤,٥٠ دولاراً**)؛ ومائةَ خروفٍ أو نعجةٍ، في الأقل لتؤكل، ثمن الواحدة ثلاث مجيديات (٢,٧٠

دولاراً؛ وخمسة جمال، لتؤكل ثمن الواحد منها عَشْرُ ليرات تركية (٤٥ دولاراً)؛ وملابس وأعطية لتكون هدايا لأسرته وعبيده تكلف مائة وثلاثين ليرة تركية (٥٨٥ دولاراً).

ولديه ثمانون بندقية. ويحتاج كل عام ستة آلاف طلقة، في الأقل، من الذخيرة بما يساوي ما بين عشرة سِنْتاتٍ واثنى عَشَرَ لكل طلقةٍ.

ويكلف إصلاح البيوت وصيانة موادها وحبالها خمسين ليرة تركية (٢٢٥ دولاراً) سنوياً.

وعليه أن يرسل، من حين إلى حين، جعائل لشيوخ العشائر، وأن يطعم عشرين شخصاً يومياً في المتوسط.

ويعاقب الأمير الخارجين عن الطاعة أينما وجدوا وكيفما استطاع. فقد رحل، ذات مرة، (بْهَيْدِر) أحد شيوخ الفَرِجه مع عشيرته، لما حانَ حِينُ عَدِّ الإبل لتقدير العدد الذي ينبغي أن يُجبى من كل شيخ ضريبةً. فأرسل إليه الأمير النوري أن يحضر دون أدنى تلكؤ، لكنه لم يُعِرْ ذلك أذناً صاغية، ولم يأتِ إلى النوري من تلقاء نفسه إلا بعد ستة أشهر، فَقُيِّدَ حالما وصل بقيودٍ كقيود أيدي الخيل ولبث مقيداً شهراً تامًّا.

وتضطر القبيلة الأضعف إلى الإعتراف بتفوق القبيلة الأقوى، وتؤدي لها ضريبة خاصة تعرف به ـ (الخُوَه). ويجبي الشّرَوَلَة الخُوَةَ من (هْتَيْم) كلها، ومن سكان قرى كثيرةٍ مختلفةٍ أيضاً. وكلما كانت الحكومة أقوى قلت القرى التي تؤدي لهم (الخُوةَ). وتؤدي (القريتين) و(تَدْمُر) و(السُّخْنه) و(كَـرم) و(الطّيبه) الخُوَّة بانتظام.

ولكل مستوطنة وقبيلة مؤدية للضريبة أخوها (أخ) أو (خاوِي) عند الرولة، تؤدي له نحو خمس وعشرين مجيدية سنوياً. والأخ ملزم بأن يعيد للمستوطنة الممتلكات التي نهبها رجال قبيلته منها كلّها. وأصل (الخُوّه) هو (القُوّه). ويجبر الأقوياء مستوطناتٍ عديدةً على أداء الخوّة لهم. وأما أولئك الذين لا (أخ) لهم فعليهم الاعتماد على السيف المشهر (سيفٍ طايل) وحده.

ويجب أن يُحْمى من يتسلمون الخُوّة أولئك الذين يؤدونها إليهم. أو، كما يقول الرولة: «اللِّيْ يا كِلْ الجِدِى يَحْمَى أُمَّه» أي: من أكل الجدى حَمى أُمَّه.



● التعليقات ●

★ هذا هو الفصل الثالث من كتاب (أخلاق عرب الروله وعاداتهم) الذي يقوم الكاتب بترجمة القسم الأول منه عن الانكليزية، ويقوم بترجمة القسم الثاني الدكتور عبد الله علي الزيدان. وقد نشرت (الدارة) الفصل الأول منه في العدد الثاني من السنة العاشرة، الصادر في المحرم سنه ١٤٠٥ هـ على الصفحات : ١٣٠ - ١٥٢.

(١) كلمة (**ولد**) قد يقصد بها (**فتى**) أو (رجل).

(٢) ترجم المؤلف العبارة هكذا : « بلادهم واسعة، ويطردون عدوهم بعيداً جداً عن حيهم ».

(٣) (رويلي) و(رويلية) هي النسبة السائرة لـ (رْوَلَه)، واستخدمناها مع أن الأفصح : رُوَلِي، ورُوَلِية.

(٤) ترجم المؤلف هذه العبارة هكذا: «**الأولون - أي الأعمام - يزودون [المرء] بالنشاط العضلي والقوة، والآخرون - الأخوال - أرحام**»!!.

(٥) من التقاليد المعروفة في البادية حماية المستجير.. ويتم ذلك عادة إذا أعلن أنه (**بوجه فلان**) فلا يمسه أحد بسوء. وإن أوذي أو استُولي على مال لـه تولى الجار عقاب من آذاه، ورد عليه ماله من مُغْتَصِبِه.

(٦) **Alois Sprenger**, Ein Beitrag zur Statistik von Arabien, in : Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, Vol. 17, Leipzig, **1863**, p. 226.

(٧) **Carlo Guarmani**, Il Neged Settentrionale, Jerusalem, **1866**, pp. 196-198.

(٨) **W. S. Blunt**, A Visit to Jebel Shammar (Nejd). New Routes through Northern and Central Arabia, in : Proceedings of the Royal Geographical Society, New Monthly Series, Vol. 2, London, **1880**.

(٩) **Alois Musil**, Arabia Deserta, New York, 1927, pp. 238-243.

●●●●●

• آل وأهل •

يقول الروله إن قبيلتهم تعرف بـ (**قبيلة**) أو (**بديدة**) أو (**عشيرة**) الرّوله. ولكلمة (**عشيرة**) معنى (**بِديده**) أو (**قبيلة**) نفسُه. ويشار إلى العشيرة، وأحياناً إلى الأسرة، بكلمة (**آل**) التي غالباً ما بدلت بها الأداة (**أل**)، مع أن كل رويلي يعرف معنى الكلمة الأولى؛ وتدل كلمة (**أل**) عموماً على ماتدل عليه(بِني) أو (اِبن)، ومعناها أوسع من معنى (أهل). ومعناها أوسع من معنى (**أهل**).

و(**فِريق**) هو الاسم الذي يطلق على جماعة من الأقرباء الذين ينحدرون من جدٍّ واحد. و(**الفريق**) أوسع أيضاً من (**الأهل**).

و(**الأهل**) جماعة محددة بالنسبة للفرد وحسب، فأهل الرجل يختلفون عن أهالي أبيه أو ابنه (**مع أن الأهالي الثلاثة في هذه الحالة يضمون أفراداً كثيرين مشتركين**). ويؤلِّف أهل الرجل خَلَفُهُ حتى الجيل الثالث ـ أي أبناؤه أو احفاده وأحفاد أبنائه ـ ويتضمون أيضاً سَلَفَه حتى الجيل الثالث ـ أي أباه وجدُّه وجدَّ أبيه ـ، ومن ينحدرون من هؤلاء الأسلاف حتى الجيل الثالث من كلٍّ.

والنسب معدودٌ عبر سلسلة الذكور وحسب. وإن أبعد الفروع التابعة لـ (**أهل**) المرء هم أبناءُ ابنِ عمِّ أبيه.

وثمة طريقة ميسرة لتقرر فيما إذا كان (س) من الأهل نفسهم الذين منهم « ي » هي أن تعد من « س »حتى الجد المشترك لكل من « س » و« ي »، ومن هناك تبدأ في العد التنازلي لـ « ي ». سيكون « س »و « ي » من (**الأهل**) نفسهم شريطة ألا يُعَدَّ بين « س » و« ي » أكثر من ثلاثة أجيال أيضاً.

وتفسِّر فكرة (**الأهل**) هذه معرفة البدوي بَجدِّ أبيه، في حينِ من المرجح أن يكون على جهل تامٍّ بِجَدِّ جَدِّه.

وقد أخبرني رفيقي بْلِيهان بالإيضاح التالي لأَهْلِه هو : « أنا ابن ضِري الذي انحدر من مِضْرِب. خَلَّف (ضِري) داغراً وصالحاً. وخلف داغرٌ إبراهيم و(**بَغْري**). وإبراهيم أبي خلَّفني، أي بليهان، وجيعانَ، وعَشْوان، بينما كان أبناء بَغْري هم : دَفْران، وراشد،